عبد الفتاح الجمل

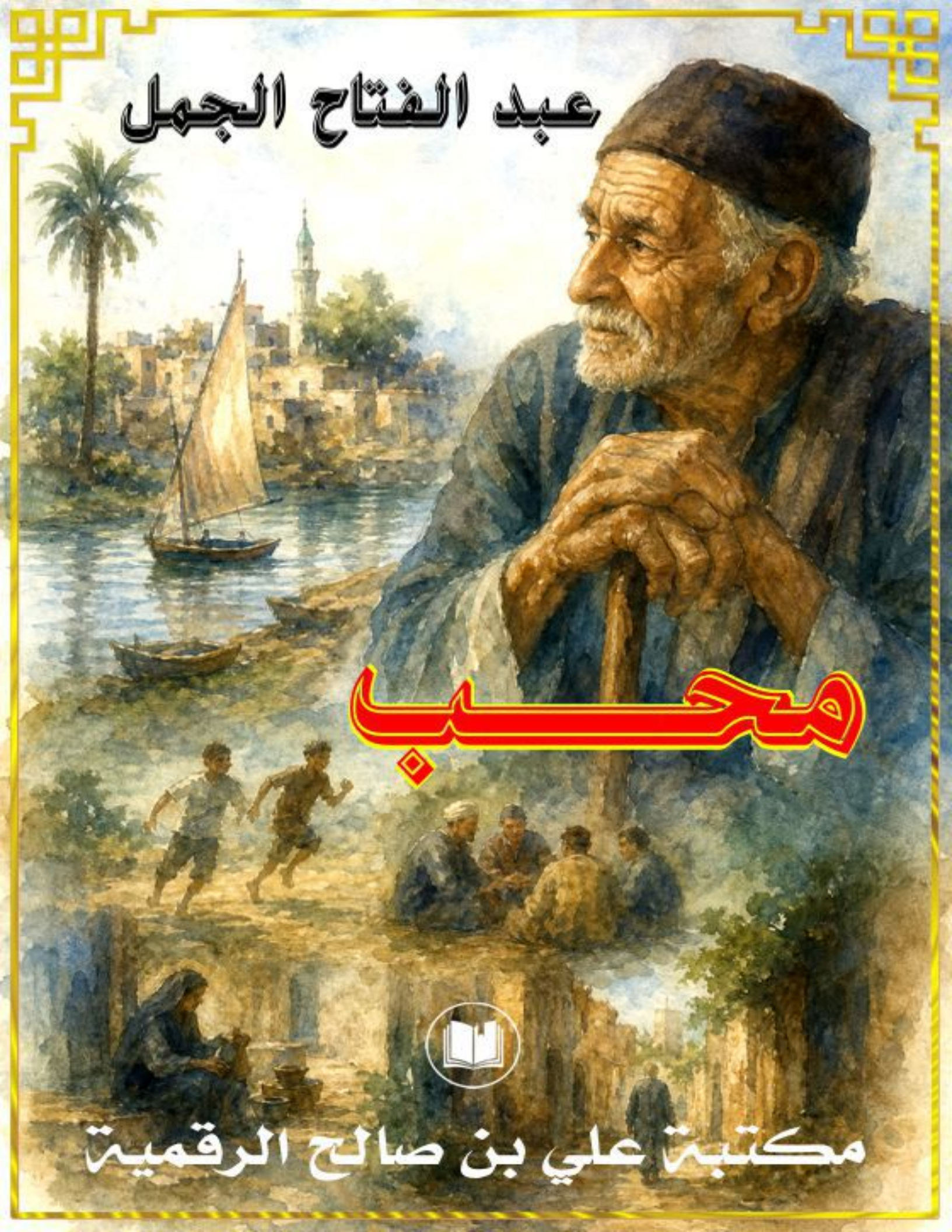

# محب

مكتبة علي بن صالح الرقمية

## عبد الفتاح الجمل

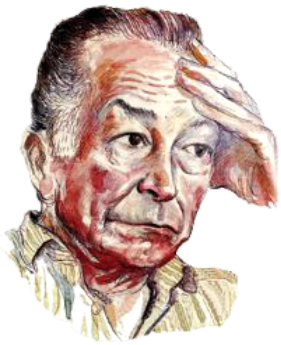

# محـــبّ

رواية

1991

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إلى أخي الحاج علي

أهدي هذا العمل، منذ أن أسعفتني ذاكرته في القريب من الأحداث، أما البعيد الموغل فهو لي، منذ أن جنحت مني الملعونة وحرنت، ونامت في الخط هناك، وقد زحفت بأظلاف قطعانها المدينة، والتهمت في معدتها الزلط، من محب، الإيقاع والملامح والنفَس والنكهة [1].

عبـده

---

(1) رائحة الفم.

# محبيـــات «١»

# في ســـيرة محـــب

حدثوا في رواية متواترة، أن «مصر» كانت تتفسح في شماليِّها الأقصى، وقيل تعُسُّ وتتفقد الأحوال، وتتعرف إلى خلق الليل والنهار، وقيل ـ وهو الأرجح ـ تمشِّي رجليها وقد خَدِرَتا من طول خلود.

كانت تعقد يديها من خلف على عجزها، وقد حباها الله في ذلك الزمان المديد، ساقين في طول فرعي النيل، حتى كناها القدامى «أم خطوة».

وبينما كانت تهبع على ضفة النيل قرب دمياط كما يهبع الجمل، إذ شرِقت والراجح أن أحدا قد جاب في سيرتها، فعطَست ومسحت بوزها بكمها وهي تتشهد، وبأصول إبهامها مسحت عينها التي دمعت، وتلفتت حولها، فلما لم تجد من يقول لها: «يرحمك الله يا مصر»، شمخت جانحة إلى اليمين، رافعة إبهامها الأيسر، تضغط به منخورها الأيسر تسده، وفمها تطبقه، وبعزم أمها وأبيها تنفخ، وكالصاروخ يرتفع بربورها، بُربور مصر العزيز، إلى أعلى عليين.

وعلى بعد كيلو مترين وكسور من مجرى النيل ـ وكان هذا قديما معيار فتوة [1] ـ انحط البربور ـ ومن يومها لم يتزحزح ـ في نقطة لم يكن لها أدنى اعتبار على خريطة مصر، ولعله السبب في كثرة أشجار المخَّيط [2] العظيم بالمكان.

هذا أصلي وفصلي ـ أنا قرية محب ـ وأصل الفتى ما قد حصل.

إي نعم بربور، إلا أنه بربور مصر.

شعبي كسالى تنابلة كالمساطيل، يتكلمون بالكماشة، يُعملون عقولهم الصغيرة كسلا لا نباهة، أكثر مما يعملون سواعدهم.

يصيدون السمك بالجوابي[3]. يلقون بها في طريق التيار، على أبواب البرابخ والعبارات والمضايق، معترضة طريق السمك، وكل صباح يعسونها، بلا نزول إلى الماء أو بلل أو طُعم أو هدة

حيل، بخطاف يلتقطونها، يفرغون ما تحصَّل فيها، وبالخطاف يعيدونها سيرتها ليس غير.

ويصيدون الطير بالمخيط، بعد معالجته حتى يصير كالغراء القوي، يطلون به الغصن المعترض، المغري للطير أن يحط عليه، فيلتصق به لا يغادره، حتى يجنيه صاحب الشجرة مع ما يجني من ثمر.

يتوقون الجنة لسببين: ليكونوا فيها هم الكسالى «متكئين على الأرائك»، ثم لأن «قطوفها دانية» أفواههم تتعامل معها بلا وساطة من رِجل تتحرك أو يد تمتد.

أمس الأول حينما قدم نابليون غازيا، نزل بجنوده إلى جارتي قرية الشُّعَرا وقرية طريطر، وتواترت أنباؤه قبل أن يصل، أن جنديًّه يعلق قبعته على باب البيت من بيوت الشعاروة وهو يدخل، حتى يتريث الشعراوي عن دخول بيته، لأن الخواجة سوف يخلف له ما فيه القسمة.

ولما وصل نابليون بجنوده إلى ساحتي، وجد رجالي يصطفون في القيظ بالقلل المنداة خارج مناسجهم، فافتر ثغره، ومضى بجنوده رأسا إلى دمياط الثغر.

وليت رجالي ما فعلوا، إذن لكان لنسائي شعور الشعراويات وزرقة عيونهن، ولما بارت بنت من بناتي.

باختصار أنا واحدة من آلاف القرى التي تلتزم الوقوف على ضفاف مجرى المياه، والقرية عادة ما تنتعل اعتبارها من مقام هذا المجرى.

أما أنا فأقع ولا فخر في حضن مصرف اسمه الخشبة، المصرف الذي ـ اسم الله على قيمتكم ـ تبول فيه غيطان الزمام كلها، وتقضي حاجتها، في غياب الدورة المائية، وتروى منه في حضرة الدورة.

ناسي بساطهم أحمدي، ونفوسهم حلوة، من نزيز الغيطان يأكلون ويشربون، ويغسلون ويغتسلون، والسبب أن التخصص ـ قناة للري وأخرى للصرف ـ شيء مكلف، وأبعد عن شاربي من نجوم السماء.

ومحب اسم النبي حارسني، اسم فرعوني قح، وعربي قَراح، وإن اختلف المدلول من عصر إلى ظهر، فهو اسم من أسماء القادة المعروفين عند الفراعنة، ومن أسماء العبيد عند العرب، يفرح السادة لدى النطق به، ويضيء لهم وجوههم.

بربور ومحب، أنا على السنجة العاشرة.

وعائلة الزوايدة الذين ينئون بأنفسهم في مسكن منفرد بأقصى الغرب، مع دوابهم وماشيتهم وأرضهم، عندهم ثور ضخم له خوار يهز أرجائي، والحاج أحمد كبير العائلة الله يرحمه ـ وكان قعر مجلس ـ يذكر ثوره، الله يرحمه هو الآخر، مستغرقا: وهوا ده كان تور؟ دا كان جمل العيلة، كان لما يشوفني جاي من بعيد، يندہ ويقول: «يا احمااااي (أي يا أحمد).

أتدرون كيف مات الحاج أحمد؟ بأن جرع زجاجة الدواء جملة بدل التقسيط المريح، طلبا لعاجل الشفاء.

وما دمنا قد انزلقنا إلى هذه السيرة العطرة، فإن عم عبده الشاعر أحد عمياني العماليق، سوف يأخذ على خاطره إن لم نجُب في سيرته.

عم عبده هذا الذي يسحبه ابنه إلى المقابر، يوزع عليها الراتب القرآني، لا يحلو له أن يقيل[4] إلا على باب بيته، ورجل ممدودة إلى لحم الشارع، والأخرى مثناة ترفع معها طرف الجلباب، مصعِّرا عضوه العظيم، للرجال يغضون مدعين أنهم لم يروا، وللنسوان يتنادين ويتغامزن، والحاضرة تعلم الغائبات.

أليس المشهد بأوجهه هو وهم وهن بمستحق، لا سيما وأن سيرة العضو المحترم، من تحت إلى تحت، أشهر معالمي السياحية؟

أما أقصى الشرق، حيث يفلح أرض العلوة عم محمد المغلاوي، فقد مر به يوما أحد أنطاعي الوجهاء، فسأله عبر الهِري[5] الفاصل:

ـ إلا الجلة دي يا عم محمد، صيفي واللاشتوي؟

رد عليه الفلاح الفصيح المغلاوي:

ـ ادَّوَّر يا حبيبي وتعا دوق.

وعم رخا الخفير، ذو الساعد الأبيض المصفر كساق الجوافة، إنه الحارس الليلي اللُّقطة، إذ يحرسني من داخل بيته لا يبرحه، لا يقرب سريره أثناء نوبة عمله، بل يظل طول الليل على قرافيصه، وظهره إلى الحائط يكب وينعس، تحت الرف الذي يصبِّر فوقه طربوشه الأسود الميري ذا النحاسة النمرة، تشع كلما هبت نسمة، وحركت لسان اللمبة الصاروخ [6]. وبندقيته المسندة إلى جانبه، تلك التحفة الأثرية التي ينظف ماسورتها نهارا، وحوله الأطفال يتسامرون معه وهو يعمرها بالبارود ثم بالخرقة، ثم رءوس المسامير أو قطع الرصاص التي يلملمها، ثم يحبس بالخرقة، وبالسيخ يدكدك في كل مرحلة، أكيد هي من عتاد محمد علي العتيد.

وعند أول حس بمقدم الدورية، ينقر عليه شباكه ثلاث نقرات، أحد أهل الليل، فتمتد يد إلى الطربوش من فوقه، والأخرى إلى البندقية ينهض على حيله، يصلح من شأنه، ثم يبدأ وقته العصيب في حياته كلها، إذ كيف يخرج ليلا إلى دركه لملاقاة الدورية وحده بلا أنيس؟ لا يجرؤ. يخاف هو الخفير المسلح، ويصطك جسمه كله، وشعر رأسه يقف، حتى سموه عم رخا القنفد.

ربما كان هذا هو السر في أن مغناطيس عم رخا، لا يجذب أو ينجذب إلا إلى الصغار.

أما الخفير الآخر عبد الموجود، الذي لا يزنهر ويفنجل إلا ليلا، فقد كان عائدا على عجلته من قرية الشعرا، وأمامه على العجلة أحد ندمائه، وكانا في خط الاستواء من سطل الحشيش.

كانت العجلة تمضي بهما على جسر الترعة الشرقاوية، والبدر أمام عبد الموجود يتربع على عرشه، وقد ألقى بظل القنطرة التي سوف يعبرانها إلى يسارهما.

وإلى الظل كسر الخفير عبد الموجود، وقد زين له الحشيش أنه الأصل.

وانفتحت لهما بمطيتهما، باطن الترعة في دوي عظيم.

أيامها دار أبنائي يقولون: الحكومة المسطولة. ضحك على دقنها الضل. ووقعها في الترعة.

> الوحيد الذي على رأسه الريشة، حرية مطلقة في التصرف، وكلما كبرت مخالفته للسائد، اتسعت له ابتسامة الناس، ذلك لأنه يعيش ولا يعمـل، لأن يديه أو ذهنـه، لم تتعفر بتراب العمل قط.

ركنت ساعة جيبه يوما، ولأنها ساعته، ولأنها مريضة، لذا قام من الفور باستدعاء علي الصافي أكبر وأشهر ساعاتي بدمياط، في عيادة خارجية.

ملتقى أهل الحظ بالمحافظة ومديرية الدقهلية المجاورة. طول الليل يحشش ويشرب ويمز، ويصهل ويصهلل في حلائب الصهبا، وقبل الفجر ينفض المولد، ليعتلي مئذنة النعمان، يشجي الآذان النائمة، وتنعش غُبارته الأحلام. حتى إذا ما حان أذان الفجر، وتقابل مع مؤذنه على سلم المئذنة، انصرف من الجامع رأسا دون أن يركعها.

وحينما يصلون في شربهم إلى مرتبة الطينة، يتمنى أحدهم، ويأتي الإغراب في طرائق الاستجابة، قال متمنيهم يومها: نفسي أمص قصب.

وإلى أرض تزرع القصب، نزل بهم من فوره، ومن الفلاح اشترى حوضا كاملا، عاثوا فيه حشا ومصا، ولما أتخموا تركه للناس سبيلا، واستمرت ولائم المص أياما بلياليها.

هو طه أبو إسماعيل، ابن الذوات الذي يبدد في آخر زاده.

غابة من الغاب والحبال والسدد[7]، تغطي حافة ميدان اتخذ هيئة المثلث، وزواياه الثلاث تؤلف مداخل الحصن، وسيده الحاج محمد مراد الكبير، وكل من في الحصن مراد، وجارهم الوحيد خارج المثلث عبد الوهاب بخيل محب، والحال من بعضه.

في الضحى دائما يعود، غاطسا هو الطويل العريض في تل من الحبال، فوق حماره البغل، الذي فرَّغه لعمله الشاق دون غيره من كل أمور الحياة، إذ ما فائدة النهيق في عرفه والشنهفة[8]، والرغبة المكبوتة وقطع الرسن؟ ما جدوى النهيق الجامح والنط، وتضييع الطاقة فيما لا طائل؟

وفي ساعة صفو قام إليه، وبشعرة من ذيل حصان السوالمة، خصاه، وفرغ من الجانب العبثي المبدد، وخلص الحمار لعمله الشاق تماما، بلا وهم من أتانة[9] تصادفه أو رائحة أتانة، أو أحلام يقظة بأتانة.

وكل من صادفه وهو عائد من طوافه اليومي على كل القرى الواقعة على البحيرة ـ وهو سفر طويل طويل ـ يستدرجه أو يشنكله[10] بالكلام لإخراجه من صمته، كل الحيل أعيتهم.

في الحصن يعتق حمله، يربط حماره، يفتح له مخلاته، يدخل بيته، يخرج متأبطا دفتره الضخم الذي يليق بقطعه هو. وإلى الحاج إبراهيم في مكتبه بميدان القهوة في ظهر حصنه يمضي.

يسلم، وهو أول كلمة يفطر بها لسانه خارج عمله، ويسلم دفتره، بين يديه يجلس، ولا يزالان حتى يفرغ في دفتره، كل مخزونه من معاملات يومه مع كل هذا الخلق، على ضفاف بحيرة المنزلة وبحر النيل غربيها.

الحاج محمد لا يسمع، لا يرى، لا يتكلم، لا يحس، لا يعرف أمه، حتى يفرغ كل ما برأسه في دفتره، حبطت كل المؤامرات، وآخرها من الحاج إبراهيم نفسه في مكتبه المتطوع للخدمة.

بعدها تنفتح شهوته للكلام، يلاغي يداعب يناغش، ويرد على كل الأصوات، ربما ثأرا من صمته، وربما تشفيا.

الآثار المدفونة في طول الوادي، والتي تظهر واحدا بعد الآخر، بعد قراءة عدّية ياسين طبعا، طالما تعجبت كيف حدث لها هذا؟ هل انخسفت بها الأرض بفعل زلزال، أو غضب الجبار؟ بالطبع لا، وإلا لكانت أثرا آخر بعد عين. أم إن الحياة انقطعت عنها بفعل وباء أو سحر أو عمل، وتأخذ الريح كامل فرصتها وعبثها بالرمل والتراب، ثم بعد أعمار ترتطم المعاول بالزلع والتماثيل والمعابد والأهرام والكشوف.

ظل هذا التفسير يلازمني كالظل، إلى أن وقع نظري على ثلاثة من شحوطي[(11)]، في فم كل منهم طرف نبوت من القصب عظيم، كالمزمار في زمانه، وأوداجهم تنتفخ وتنسفط، وعروق جباههم تبظ، ومن حناجرهم يخرج مثل صوت القاطرة الحكومية، وهي تفرغ الدخان فجأة، وفي نهاية الجبدة بلغة النجارة، يفلت الصفير.

هي المباريات التي تقام كل أصيل بين الماصة، أيهم الأسرع، فينجو من الدفع.

والمصاصة ترتفع بأرض الدكانة، وطبقاتها اليومية تحت ضغط الأرجل، تتساند وتتعاشق وتلتحم، والأرض ترتفع في طبقات جيولوجية، دون أن يفكر الحاج محمد مراد الصغير ابن الحصن، الهادئ إلى حد البلاهة، والناسي فمه مفتوحا، حتى إن الذباب ليطمئن فيدخل الكهف المصيدة، ولا بأس أن يبتلع بضعا كل مرة حتى يدمنها.

لم يفكر يوما في أن يرفع تلك المصاصة، فإذا تعذر عليه هو شخصيا القفز إلى الداخل، أتى بحجر ونصبه درجة سلم.

آثارنا يا سادة، لم يحفظها لنا الزمن حليفنا، الذي يحلو لتلاميذ مدرستي أن يسموه منتفخين الخلود، بل المصاصة، والمصريون بسبهللهم مقشرون مصاصون مخلفون، من أجل الرفعة فوق تلال مقالب المخلفات كالجديان.

الصوت الممطوط لسقوط جاموسة في بير ساقية، والمتقطع للحريق، وهما الكارثتان النازلتان دائما على أم رأسي، ولا تكونان إلا بليل خِرمِس[(12)]، وفي ثانية واحدة أشتعل بالنبأ، بفضل التقدم المذهل لجهاز الناعورة الجهورية المودعة في حناجر نسائي.

العجائز على الأبواب، يمسك الصغار بذيولهن، رافعات الأيدي إلى أبواب السماء، واللمبة الصاروخ على الرءوس، وكل نسائي يصوتن ويبكين ويدعون من قلوبهن وبصدق، لأنهن يبكين مصائبهن الشخصية المثيلة التي نزلت، أو على وشك النزول.

ينزرع باب في كفر محب، وكالسهم يندفع وشيء بين أسنانه يلمع على ألسنة الصواريخ التي يخترقها، إنه السكين بين أسنان عم أحمد العرباني.

جاموسة الجلادي سقطت في بير ساقية عنطوظة، وفوق تل الساقية المشرف على أحواض الرز، ترتفع المشاعل والكلوبات.

الجاموسة عند الفلاح أغلى من ولده وذويه، لأنها التي تجري على حياته ومعاشه، للفلاح فيها حصة، ولكل من أراد أن يشغِّل أمواله حصص.

الجاموسة عندي بنك.

وإلى بير الساقية نزل الجزار، حيث الجاموسة محشورة بين الطنبوشة والترسين: الكبير النائم، والصغير القائم، وقبل أن تلفظ أنفاسها فيحرم أكلها، يكون قد كبَّر وجزر.

ثم يقطعها لترفع من مزنقها أجزاء، ويوزع لحمها على البيوت جميعا تضامنا ومساندة، العدو قبل الصديق، والعرف الصارم جرى على ألا يؤكل في لحمها حق.

الكل يشترك ما عدا الأغنياء، معفون بحكم أنهم لا هم من العدو ولا الصديق، وأنهم لا يأكلون اللحم الوقيع، كما يسمى، إذ لا يليق بهم، وحقيقة الأمر أنهم إذا أكلوا لا يدفعون.

لقد انتقل الجلادي فجأة من مصطبة المالك إلى قعر القفة فطيسا.

على الطريقة المحبية، يعاد توزيع الثروة على من لا يستحق مع تقطيع الهدوم، بعد أن تكون الثروة قد صارت أثرا بعد عين.

قال لامرأته وهو على باب الخروج: فلفلي[13] الرز، سآتيك بسمك مشوي.

ولما أن جاءها بلا سمك، وقد أنساه إياه شيطان الكسب، غضبت وهبت في وجهه، ولم تكد تمضي في موشح النكد، إلا وقطة تقفز من السطح المجاور الخالي من السكن والسكان، إلى شباكهم المفتوح، وهي تحمل ذكر بط جاهزا.

ما كان من الاثنين في نفس واحد، إلا أن بسا القطة بصرامة، فهربت بجلدها تاركة ذكر البط الجاهز أمانة.

قال لها: ولا تزعلي يا ستي، آهي إجت من السماء.

قالت: وهي السما بتشتي[14] بط محمر؟

قال: أصل ربنا عالم بالحال، وما يحبش النكد، لأ ودكر جاهز ومعتبر.

وأسرعا يأكلان وينبسطان، قبل أن يبين له صاحب.

قالت وهي تجمع الأشلاء: مسكينة صاحبته.

قال: لأ مسكينة قطته.

ثم خرج إلى قهوة يوسف يحبس بالشاي، وشرع يحكي لجلسائه عن كرم الله عليهم اليوم.

وانتفض جاره الجَنب، وأمسك بخناقه، وأراه النجوم بالنهار الظهر.

ثم طالبه بالعوض، إلا أن هذا رفض رفضا، بحجة أنه غير مسئول عن غفلة الغافلين، وأنها للمحظوظين وليست للحسيبة، أم تريد أن تغير من سنة الله في كونه؟!

كان الورثة في انتظار أنصبتهم من بيع أرض آلت إليهم، وقد تصدى للبيع والإنجاز ابن الشيخ، والشيخ ـ وليس ابنه ـ فوق كل الشـــبهات منذ آدم حـــتى القيامة، وكان الابن قد طلق امرأته، إلا أنها لا تزال معه لم تغادر شقة الزوجية، ربما كما يقولون ـ مع الاحتفاظ بحقي المشروع في الاستغفار ـ بمعاشرة بلا تعشير.

كان كل واحد من الورثة غارقا في غزل فاضح مع نصيبه المرتقب، حين خرج عليهم ابن نوح، ليقول في شمحطية يحسد عليها:

ـ كان المفروض يا سادة، أن تكون رزم نقدكم معي الآن. إلا أن مطلقتي للأسف الشديد، خطفتها نكاية وأشعلت فيها النار.

كان أحد المتفاصحين ـ وما أكثرهم عندي ـ يدلي بأقواله أمام المحكمة، فجره لسانه إلى القول.

ـ العامل الزراعي «البيه ملح» يا سعادة البيه، هو الذي دس الريش في مخلاة الحمارة فأماتها، لأنها ترفسه كلما أراد شيئا منها، فعل ذلك انتقاما منها، ونيا.. فيَّ.

وانقطم الكلام، وانحبس صوت المحكمة، وران عليها الصمت الثقيل.

إلا أن المحامي اللوذعي، انبرى يقول:

ـ موكلي يقصد «نكاية فيه» يا سيادة القاضي.

وانفجرت المحكمة بالضحك، وقد سرى عنها.

إمال؟ لديّ أنا الأخرى الصناعة الثقيلة، التي أحتكرها، ولا تحسبن العالم الحديث وحده هو الذي يعرف الاحتكار، هي صناعة سمسرة الحمير، ولا مانع من حصان حساوي في السكة، والمحتكر الأوحد قبيلة الحنانوة.

أول ما نبدي القول في هذه الصناعة، أن الحمار إذا أتى واهنا مهزولا نائما على نفسه، دس له الحناوي منهم في دُبُره خفية على باب السوق، قرنا من الشطة، فيدخل السوق وكأنما يمشي على لهب، ورأسه وأذناه إلى عنان السماء.

احتاج الشيخ حسن الغزاوي يوما إلى قرشين، فعرض حماره الباتع للبيع، فصل بعشرين جنيها، حتى وصل إلى ثلاثة وعشرين، رفض الشيخ البيع ما لم تكتمل الخمسة الخامسة.

فلما زنقت عليه، توكل على الله ساحبا إياه إلى سوق الحمير بالمدينة، وفي الأصيل على قدميه عاد، وتلقفه الحاج إبراهيم في مكتبه بميدان القهوة، الذي يفتح للشاردة والواردة. سأله:

ـ وركبت رجليك بكام يا شيخ حسن؟

ـ ١٨ جنيه بس.

ـ وليه البهدلة دي كلها؟

ـ أعمل إيه يا سي إبراهيم، أصلهم رضرضوني، رضرضوني يا سي إبراهيم رضرضوني.

والرضرضة يا سادة هي سر هذه الصناعة الثقيلة الباتع، يُلقَّاها البائع والمشترى على السواء، وعِدَّة الشغل فيها الخيزرانة الطويلة الرفيعة التي لا يتكلم الحناوي إلا بها، لو نشلت منه خرس.

يقع الزبون، بائعا أو مشتريا، كما تقع اليمامة في الفخ، حول مدار حمار راقص على لهب، على ظهر الزبون ـ والابتداء عادة بالظهر ـ حتى يقبل ـ يلسوع قائلا:

ـ ما تدورش ورايا، أنا حاغشك؟!

ويُردفه بالثانية على صدره، حتى تلتقي بداخله اللسوعتان فيتوقف ويثبت.

وتأتي مرحلة المناقب، وتختص باللسوعات المتلاحقة، تنهال على الأطراف الأربعة، فلا يرى الزبون في الحمار إلا ما يتغنى به الحناوي.

ـ طلاق تلاته يسابق قطر الحكومة.

وبلسوعة عظمى على الفخذ البعيدة.

ـ طلاق تلاته أشرب عليه فنجان القهوة ما ينكب.

وبواحدة أحمى على المعصم.

ـ عليَّ الحرام دا أصله عليَّ تلاتين.

وينظر الزبون الخبير، ويقول بعجلة:

ـ دي بطنه كبيرة وياكل كتير.

وبلسوعة موصاة، وراءها وابل.

ـ أنت بتدور ورايا؟

وواحد أشد.

ـ ما تدورش ورايا.

وواحدة على المعصم الآخر:

ـ عليَّ الطلاق دا عليَّ بستة وعشرين.

ولسوعات لطيفة مداعبة ومتلاحقة.

ـ طلاق تلاتة دي فلوسك حلال، السوق النهاردة واقف.

وبيده يشده من يده يريد أن يملخها.

ـ يبارك لك.

ويظل يرددها ثلاث وسباع وتساع، زعقا وملخا، حتى يأتيه جواب الزبون المحاصر.

ـ يبارك.

في كل قرية بخيل مَتحف، يجمع ويضم ويحوِّش، يملك الخرابات ولا يربي إلا المعيز وحدها، لأنها تلوش طعامها من الشوارع، وتنهبه من أعماق البيوت، فلا تكلفه حياتها سحتوتا واحدا. (15)

وبخيلنا عبد الوهاب، الذي يعيش على المجفف والمخلل، استغل أصحابه من الصبية ـ والبخيل لا يصادق إلا من الصبية ـ في حفر ما يشبه البركة في ركن جنينة الخرابة، وفي ملئها بالماء، وإمدادها به يوميا ليحتفظ بمنسوبه، وهو عمل أحلى على قلوبهم من العسل.

وإلى البركة جلب عبد الوهاب القراميط الحية، يشتري الصغار منها بالكومة وبالمقايضة، منذ أن كان قرشه يعمى إن رأى النور، كما يقولون عنه، يربيها له الزمن في بركته، والزمن وطولة البال للبخيل المعين الصدوق.

ويوم أن دخلني الماء النقي من دمياط، عمد إلى حنفية في الحوش، أقام عليها حوضا مسدودا لا منفذ له، وفتح الحنفية فتحة يفلت منها خيط من الماء دائم دائب، إلا أن العداد لا يحس به، وكم أجرى من التجارب بين الحنفية والحوض والعداد، ومن الحوض تعود أن يغرف لحياة يومه وحياة قراميطه.

ولعبد الوهاب جدي شهير قوي عفي، يشارك البلد كلها طعامها، ويدبق[(16)] بالأطفال لحظة خروجهم من بيوتهم، ليخطف اللقمة من أفواههم وأيديهم، وهو العليم بمخزن الحبوب في كل بيت، يقتحمه بسطو مسلح مباشر، لا يُثنيه ضرب أو نطح أو أذية، حتى ينال وطره كاملا.

ولعبد الوهاب أيضا ولد، أبيض البشرة كعبد الوهاب، طويل عريض قوي عفي، لا يعلم أحد أهو شرعي أم غيره، باعتبار أن البخيل لا يقدم على زواج، إذ لا تهون عليه تكاليفه الدائمة والحتمية، وهو الهارب بالقوة أو بالفعل من الحتميات، وباعتبار أن البخيل الأصيل بارد لا تهتز فيه شعيرة من أقاويل الناس، وبين أقاويلهم والأفاعيل فراسخ وفراسخ.

زامل عليّ ابنه جديه طويلا، حتى تعلم منه أصول الصعلكة، يركبه هو الثقيل، ويجري به في مشاويره، حتى أطلق عليه أترابه «علي الجدياني». ومن طول العشرة تلقى على يديه الضراط باللسان، حتى إنك لا تفرق بين ضراط وضراط إلا بالرائحة، وخرج منه إلى التجشؤ بأنواع أكلاته، وأعتاها الفُجل.

وعلي الجدياني لا يحلو له أن يطبق هذه الموهبة المكتسبة، إلا بين كوكبة من لداته في ليل رأس البر، وفي لجة الاستعراض العظيم لربات الثراء والجمال. حين يلمح جميلة الجميلات، يحييها بجشأة فجل أو ضرطة، حسب المقام.

والثلاثة عبد الوهاب والجدي وعلي الجدياني، من طول العشرة، تداخلت منهم السحن، وتقاربت الملامح، حتى تناقل المحبيون أن الجدي حصيلة نطة من عبد الوهاب.

والأسطى محمد الرجل الرزين الصموت، المزين الوحيد الصموت، لسانا ومقصا، لا تخرج منهما الكلمة والقصة إلا موزونة وبالكماشة، وضربة مقصه في الشعر لا تضاهى، مترفع وقليط لا يقص عندي إلا لثلاثة أو أربعة، والباقون يتولاهم أخوه الأصغر الأسطى أحمد، وعماد قصه لخاصة الخاصة بدمياط.

**الأسطى محمد من كثرة ما رأى ويرى طول الصيف من الجمال المتجمع في رأس البر، حيث ينتذب يوما بعينه في الأسبوع، في صالون الشال بشارع النيل حيث المعمعان الليلي، يقص فيه لخاصة خاصته.**

**الأسطى محمد هذا من قبح امرأته كما يراها أخيرا، ضج وبرم. ولكنه متعال رزين وكاظم.**

**وكلما أراد أن يعاشرها، نزل في الأصيل رأس البر، وتجول بين فاتناتها في شارع النيل، إلى اللسان، إلى أن ينتقي له واحدة أثيرة من بين المئات، تفتنه وتخبله، يتعقبها وتلازمها عينه من بعيد وقريب، يتمعن ويخزن ويحوش، حتى إذا ما أترعت منها نخاشيشه بعد انفضاض المولد المنصوب، أسرع إلى بيته في قلب الليل، إلى وجه امرأته يطرح عليه، فوطة، ليباشرها وهو يتمثل نموذجه الذي اصطفاه.**

---

(1) فعلها أحد خلفاء بني أمية في أول خطبة له، إذ تنخم وتمخط وأطلق، فالتصقت بسقف المسجد، حتى يهابوه.
(2) ثمرتها في حجم النبقة، بيضاوية في لون العاج عند النضوج، تنزع قِمعها وتضغط الأنبوبة، فتتدفق عجينتها في فمك.
(3) الجابية (الجُبية بلغة الناس) من سلك، ذات باب دائري يضيق، تدخل منه السمكة ويستعصي عليها الخروج.
(4) ينام في القيلولة.
(5) قناة ري وصرف معا، دون الترعة وفوق القناة، وفصحاها بضم الهاء.
(6) زجاجة صغيرة بها وقود، وبفوهتها لبوس من صفيح، يتخلله فتيل، يوقد ليخرج صاروخ الشعلة.
(7) الغاب المنسوج.
(8) شم الحمار الزبلة المعترضة، والشب بها بين الأنف والشفة إلى أعلى عليين، في نشوة.
(9) حمارة.
(10) يعرقله بقدمه ليقع.
(11) الشحط هو الفلق من الناس، وأصله العود ترفع عليه الأغصان الرطاب.
(12) بلغة القرية وهي عربية أيضا بمعنى الليل الأسود المظلم.
(13) أنضجية حتى لا يتعجن أو تتلزق حباته وتلتصق، بل يبدو متفردا كحبات الفلفل.
(14) تمطر إذ المطر في مصر لا يكون إلا شتاء.
(15) السحتوت هو البارة أو الفضة، والمليم ـ عليه رحمة الله ـ وبجلالة قدره، كان يُفك إلى أربعة من هذه السحاتيت.
(16) هي نفسها «يدبق» العامية.

# ياســـين الفـــران

وياسين الفران ابن ياسين الفران، الذي خصص فرنه للسمك وحده، واتخذه على أول حدود المدينة، وعلى مرأى مني، وبين سماكين عن يمين وشمال، والثلاثة من أبنائي، يتوانسون حتى لا يضيعوا مني في المدينة الكبيرة.

ياسين الهادئ الذي لا تسمع له حسا أو ترى ظلا، اهتدى إلى أسلوب مثله حريري وناعم في التحايل على المعايش، دون أن يضار أحد، أسلوب وردي لا يتعدى طبة الميزان، إن عرض على عداد المخالفات.

ياسين الفران يشرق وجهه، إن أتاه زبون الاستفتاح بِشرٌّ، وهو البلطي أو الشبار الصـــغير جـدا، أو أي ســـمك صغير جدا، ويربدُّ وجهــه مع السمك الكبير في الاستفتاح، ويظل طول يومه مكفهرا لا يفكها.

السمك الصغير جدا لا يعد ولا يحصى، إذا فصلت منه ثلاث سـمكات ـ وهـو عدده المفضـل ـ شـــاور الميـزان نفسه بين أن يتأرجح أو لا يأبه.

هذه الثلاث المفصولة التي لا وزن لها، هي له حلال زلال، منذ أن كانت لا تحوِّق أو تلوِّق!

سنرى كيف لا يستعجل عليها، بل يملي لها النهار كله حتى تنمو بخطوات حثيثة وهي القادرة على فعلها بجدارة.

وكلما أتاه سمك من النوع الذي أوقعه بخته فيه، استبدل بسمكاته الثلاث، ثلاثا أكبر سِنَّة.

ويظل سمكه طول النهار لا شاغل له إلا النمو، حتى يصير في اصفرار الشمس ثلاثا من الشبار أو الجران أو الدنيس ملء العين والهوى والمراد.

أما إن باضت له في القفص، أتاه سمك الاستفتاح خليطا، ونصيبه من أجناس ثلاثة، تظل تنمو وتتربى، على الغالي حتى آخر زبون.

يلقي بها إلى صاج الفرن، لتشوى على ذوب نار النهار كله، هادئة أصيلة، حتى إذا ما استوت على الجودي، أخرجها إلى الملح والتوابل، وكمرها في لفافة، حتى تفض وهي تتوسط طبلية العشاء الثلاثية.. هو وامرأته وابنه ياسين ياسين ياسين الفران.

على الهري المائي الذي يحدني من البحري، ويلف القرية كلها كالحزام، حتى يعود إلى الترعة من حيث أتى، يقع بيتا ندى وشتا، وبينهما شارع، ولكل بيت منهما جنينته التي يحفها النخل، وتتوسطها الجوافة، ثم التوتة والنبقة على جانبي الشادوف تظللان الساقي، والأشجار كلها خضرة وظل وجمال وثمر، ثم شجرة الفُتنة التي على حافة جريف الهري، تمسكه فلا ينهار، وفي أقصى البحري، حتى إذا هب نسيم، حرك زهور الفُتنة الصفراء التي في حجم البلية وكالقطيفة، ونشر شذاها في البيت والشارع.

وزوجة حسناء كالبقرة، وحاضرة وأروب واسمها ضحى، سكنت فوق ندى، في دورهم العلوي بعد زواج بناتهم.

لم يزرع ندى لبيته على عادة من يملك جنينة، لبلابة تكسو جدران البيت جمالا، وترطب صيفا، وتحفظ من العين ومن التآكل والبلى، تماما كما يغلفون الدراجة بالمشمع، والكرسي المذهب، ووجه المرأة الفاتن، بل زرع لأول مرة في الشط كله فضية.

ولأن بيوتي تفتح طاقة من مجاريها في حدائقهم، فالنبات عندي كالحسناء في المنبت السوء، يصح ويزدهر، وما أسرع وأنشط ما صعدت الفضية إلى ضحى الجميلة، وبالطبع على حساب تحت، حيث تذوي الأوراق والأغصان، ولا تبقى إلا الساق الأصل الغليظة المقشفة.

وحزن آل ندى كل الحزن، يزرعون الفضية ويتعهدونها ويربون لحم أكتافها، لتكون في معية الست ضحى الغريبة؟!

لا بد أن تدفع مقابلا، وإلا حششناها.

ولكن الجار شتا، صعدت إلى بيته ست الحسن، وكسته حتى لم تعد تطل منه طوبة، في منظر فاتن، أخضر كاس، ترصعه الزهور القمعية البيضاء.

ألبتة لا يستطيع حسن ندى فَرَّاش المياتم والنساج، أن يجتث فضيته الوحيدة في الجناين، وإلا كان قد رفع الأيدي بالتسليم السهل العبيط، في المعركة الاجتماعية المحتدمة بينهما دائما أبدا في ود.. ندى وشتا.

وكلم ندى ضحى في أن تدفع أم قرشين شهريا إيجارا لهذه الفضية المكلفة التي تتمتع بها دونهم.

قالت له الست ضحى التي تعلم بواطن الأمور، وتملأ يديها منها تماما:

قالت وهي تهز كتفيها:

ـ ما تلزمنـــاش، عايزينهـــا خـــدوها، وعـلى أكتافكم شيلوها، اتلفعوا بها.

وخرس آل ندى.

وأخونا محمد شتا، جار ندى، البياع في دكان آل هندام الضخم بالمدينة، أتته سيدة معها قفة، أقبلت عليه بابتسامة عريضة، وسلام غليظ وسؤال عن امرأته بالاسم، وابنه عوض وبقية الأبناء والأحوال بالتفاصيل والوقائع.

ثم طلبت طلباتها من الرز والعدس والسمن والزيت، والعسل والطحينة والصابون والزهرة، لم تُغفل شيئا حتى امتلأت القفة، وكان الحساب سبعين قرشا.

ثم قالت: المحافظة يا سي محمد بعيد عنك، قشَّطتني، قَيِّد الحساب، وبكره حافوت ادفع.

وأعانها في حمل قفتها الثقيلة فوق رأسها، وأقلعت مضمخة بأزكى السلام والتحايا.

وفي آخر الليل، قبيل أن يشطِّب، شد الحاج عبده هندام دفتر اليومية، وشرع يرحِّل حساب اليوم، فوجد مكتوبا: واحدة شايلة قفة. وأمامها حسبة ٧٠ قرشا.

والسبعون قرشا يومها، كانت تشتري محلا.

وأخونا محمد شتا هذا، هو نفسه الذي قالت عنه «الخوف» [(17)] إنه بعد الوصول إلى بيته في آخر الليل، يجلس على عتبة بابه، طلبا لنسمة شاردة، وتأتيه امرأته بالطعام من الرز والسمك بالطبع.

يقشر السمكة، ويتناول ملعقة من الرز، وفي أعقابها فصا، وبينما هو يمضغ، إذ يغلبه سلطان النوم من طول وقوفه وحركته الدائبة في محل هندام الوكالة.

وتقوم القطط عنه بالمهمة مسحا ولحسا، ويصحو فيجده قد أجهز على طعامه، يغسل يديه من الزفارة، ويربت على كرشه حامدا الله على الشبع، شاكرا فضله.

الطحين خدمة أسبوعية في كل بيت، إن لم يجد ما يطحن، نصب الرحى في صحن الدار، وطحن نفسه مع بقايا حبات الذرة والفول والحلبة وكل ما تصل إليه اليد، إسعافا وتصبيرة إلى ميسرة.

والحمار وسيلة نقل الحبوب إلى مكنة الطحين، والصغار وسيلة الحمار إلى المكنة، أما الحساب فيتولاه جمعة عامل المكنة، بعد أن يوقفها، ويشنكل[(18)] بابها.

يأتي جمعة برموشه وفوديه مخضبة بالبياض، والخضاب الأبيض أمل كل الصبية وحلمهم، لأنه الكبر والعمل والبعد عن تحكم الكبار، وما الصغار إلا فراشات تتغطى أجنحتها بالدقيق الملون، شديدة القسوة، لأنها لا تدري كنها للألم.

والكبار لا يسمحون للصغار بصحبة الحمار، إلا بعد أن يُسمِّعوا آية الكرسي، لأن القنطرة التي يعبرها الحمار الثقيل بحمله، لم تكن إلا اسما لشيء مسن متهالك، وآية الكرسي رخصة القيادة التي تجنب الحمار أن تنغرز قدمه في ثُغْرة من القنطرة المروميا.

وحينئذ يسرعون إلى إصلاحها، بأن يضيفوا بضعة مقاطف من الردم تدحى فوق سطحها، فتجعلها تغط في التراب الساخن صيفا، وفي الطين الزلق شتاء، وبدل أن يكحلوها يعمونها.

ما كان ينغِّص الصغار، ويعكر عليهم أحلامهم في الركوب والمسئولية، والعودة مكللين بالتاج الأبيض، إلا هذه الترعة التي تعترض. لِمَ لم يبن هلالي مكنته إلا في البر الآخر، بل لم لا تبني الحكومة قنطرة؟

ثم.. لِمَ يهدئ العطشجي من سرعة قطار الدلتا الفرنساوي البطيء أصلا، ليلقي على ملابس الصبية المستحمين، المخبأة في الغاب الكرومي على ضفة الترعة، وتحت قوائم القنطرة، الجمر المتقد؟ ألأنهم يضعون المسامير على الشريط ليبططها قطاره، فتكون لهم سكاكينهم؟ ما يضيره؟ ألم يكن صبيا؟ ألم يجرب أن يكون له ولد؟!

كان التجهم هو وجه كل شيء، والحرمة تتلبس كل شيء، في كل خطوة محرمات، المكنة مثلا محرم على الصغار الذهاب إليها إلا للطحن، وليست النزهة، والتاج الأبيض الذي يكلل، هو نفسه الذي يفضح، لكأن الكبار لا يكونون كبارا إلا بالمحرمات والمحظورات.

وحينما لا يكون طحين، يجلس الصغار حول القنطرة آخر حدود المباحات، ليفتحوا مراجل غيظهم من كل الممنوعات، بفرض ضريبة على كل من يعبر، أن ينشدوا له في جوقة واحدة، ما يقوله الراكب للدابة، وهي مقدمة على أرض مزلقة: «إوع زلق»، فيردون ممطوطة: «إوعى».

وكلما هبط المستوى في مدارج المعيشة، أرخى الآباء الحبال للصغار، وزادت الإباحات والمسموحات، حتى تنعدم المحظورات في اللامستوى، ويا بختهم، ويا ستون طظا في المستوى، كما يقولون، إلى أن يغادروه، فالطظ يومئذ في الحرية.

***

وفجأة، سمع الصغار، الكبار يرددون: «الانتخابات»، وقد زايلهم جمودهم.

وفي صيحة تحولت القنطرة إلى فرجة، والصغار لم يشدهم أو يجذب انتباههم الصغير، الانفراجات على وجوه الكبار، ولا تلك الوجوه البيضاء، الملظلظة الوافدة من المدينة، بأيديهم الممتدة بالسلام والمصافحة، وألسنتهم المفرقعة بالكلام المتدافع، ولا الليل الذي صار نورا ومكلمة ومقابلات، ولا الدنيا التي أضحت عرسا وبشاشات، ولا حتى الأيدي الحديدية التي لانت، فلم تعد تقبض على الصغار، وتدخلهم الأقفاص كالدجاج مع أذان المغرب.

بل ما يحدث حول القنطرة، رءوا فجأة كومتين من زلط ورمل عن يمينها وشمالها.

أخيرا سيبنون القنطرة، هيه، وزاط الصغار وزقططوا.

الانتخابات كمباراة الكرة الشراب، من يفز يبنِ، وهو وعد من كبراء البندر.

وخطر على بال الصبية، أن يقسموا بعضهم إلى فريقين، كل فريق إلى كومة زلط يعد حباتها، والفائز ولا ريب صاحب الزلط الأعظم والثقة، وهو من يبني القنطرة.

وتم التصويت، وباتت محب كساحة الفرح المنفضِّ.

ومن النجمة تسابق الصبية إلى القنطرة في انتظار البنائين والفعلة. وجدوا المكان يصفر، انشقت الأرض وابتلعت الرمل والزلط والأحلام. والذي استغربوا له أشد استغراب، أن الكبار لم تهتز فيهم شعرة، كأنما لم يروا رملا أو زلطا، فقط عادت كل تقطيبة إلى مكانها بالضبط من تضاريس الوجه.

قالوا لأنفسهم، لم لا نكون كبارا، نرى ونفهم ولا نتكلم، ولنا تكشيرتنا التي ستكون أعظم من هذه؟ ولم يكونوا يعلمون أن واحدا فقط له حق السحب هو الغالب، لأنه كولد الكوتشينة يقش، وأن الرمل والزلط ما هي إلا مراهنة بينهما على اللعبة الانتخابية، لا شأن للبلد بها إلا زعزعة أحلامها.

القنطرة هي البرسيم الذي تلوح به للخرفان.

وما أسرع ما جاءت الانتخابات التالية بعد بضعة أشهر، ماذا جرى لزعزوعة القصب في «مصر»؟

لأول مرة ظهرت أسياخ الحديد إلى جوار الرمل والزلط. قيمة المراهنة زادت، والمفاجأة الجديدة أن الأكوام زادت كوما.

أما مرشح الوفد فاحتل يسار القنطرة، وأما مرشح الأحرار الدستوريين فاحتل اليمين، وأما المستقل فاحتل الضفة الأخرى البعيدة، والفائز بالطبع يقش، لأن اللعبة بينهم هم بعيدا عن الناس الورق.

> هل لى أن أخص أحدا من أبنائي بفائض من حب أو كره عن الآخرين؟ إن كان فهي هذه التي تعيش على تأجج أحقاد هذا المجتمع الصغير، وتشعلها بلسانها حديدة الفرن، إذ تتعامل باقتدار مع بيت النار، حتى إذا ما نزلت نازلة، طارت الأحقاد، وتساندوا على دفعها، وفي مقدمتهم ضابط إيقاعهم رداحتنا، لأنها تعرف اللعبة جيدا، فلا تخلط أدوارها. هي أفيونتي.

اللحظة التي تخز فيها الشمس النحلة بإبرتها حبة الندى، يطرق الآذان النائمة أول صوت أدمي يرن بعد آذان الفجر، ويحدث في الأثير لغطا.

تبدأ يومها، لا بصباح خير أو فل، بل بشوط حام من تمرينها الصباحي في الساحة أمام بيتها، على جارها القزعة «علي البندقة» كما تسميه، المسكين الذي لم يرتكب يوما في حق ظله ظل إثم.

ولكن ما في وسعها أن تفعل، وشباكه يطل على بابها في الساحة الفاصلة، التي ينصب فيها زوجها عم السعيد شلاطة، حضانة ومعهدا وشفخانة للحمير؟

ثم.. وهو أصلا المنحول القصير الممصوص كتمرة؟

وحبال صوتها تخشى عليها أن تصدأ أو ترتخي، وهي الحريصة على رأسمالها الثمين المودع في صوتها، وقاموس ردحها وتضاريس أدائها، وغرفة التحميض المظلمة لصورها الفنية؟

من أول دقــة تحرص على إيقاظ الشارع والحارات، ليكونوا شهودا، والفرجة ركن اللعبة الركين. إذ ما قيمة الردح بلا تشهير؟! وعليَّ أبو دورين كما أخرجه ردحها، هو الميس[19] والبَوّ[20] المنصوب أمامها كل صباح، لا تحل عنه أو تعتقه إلا إذا جاءها نداء مع وش الفجر، ويحدث

عادة في التار البايت، أو الطارئ المفاجئ الجسيم، وحينئذ لا تقطم تمرينها، بل توصله إلى نهاية مفرقعة متقنة إن تعذرت الطبيعية.

هذا التمرين الصباحي الدائب الدائم، هو نفسه النداء الحي على بضاعتها التي لا تبور، لأنها جاءت عن ضرورة قصوى ملحة، وعلى الوجيعة.

وعلي البندقة ـ الذي صار اسم شهرته ـ ذلك الجمل الصابر، لا يرد أبدا، لم يفتح شباكه المطل عليها قط، بل استيقظ الناس يوما، ليروا الشباك مسدودا بالطوب الأحمر، والقرية تتقاتل حتى المحاكم والدم، على فتح شباك من أجل ضم ملكية أو إثبات، البندقة اشترى نفسه، حتى لا يسمع إلا من قفاه.

إذا أتاها النداء، دخلت بيتها وعادت بملاءة الردح الطويلة أم ذيل، تجرجرها بيمناها، كالإعصار تقش وتثير ما على الأرض، وتتعمد أن تطيل الطريق من أجل الحشد والتهييج، فلا تصل إلى المسرح إلا في غاغة.

يبدأ العرض بالقَرعة، عُدة الشغل الرئيسية لأنها الرمز، تديرها بين أصابعها في دربة حتى تَوِرَّ كالنحلة، وتختفي ملامحها وتتجرد إلى شكل القُلة فوق دولاب الفخراني، ثم تُلقي بها لتتنطط ثم تتدحرج، ولسانها معها يفرقع بالأهاجي، وللقرعة الحبيبة سعرها.

والبيوت كلها مندلعة بردح النساء، وكلهن الهواة دون الرجال، فالردح فن نسوي خالص، بخلاف الهجاء العربي الرجالي، والموسرات يستأجرن قرعة حفيظة، والمعسرات يردحن لأنفسهن، بأن يبدأن على أبوابهن شرشوحات[21] يشاكسن طوب الأرض، إذ ربما ينجم من بينهن حفيظة جديدة.

بهذا مضيت أنا محب، أهدهد أوجاعي.

***

قالت لها ست البيت، الذي يطل من عليائه على بيتها، ويفصل بينهما ساحة الحمير وتمرينات الردح الفجرية، حيث تخدم في الضحى وتهنكر، قالت لها الست[22] فاطمة فيما بين التأنيب والعتاب:

ـ يا خَلْتْ[23] حفيظة انتي ليه ما غسلتيش القصرية كويس؟

ـ إيه، طب هاتي.

ونتشتها من يدها، إلى الحنفية تصب فيها الماء، واندارت إليها تشرب منها، ثم أعادتها إليها من سُكات.

***

ويوم تنقية الغلة[24]، هي للغربال ترقِّصه ذات اليمين، وذات الشمال، تذري وتُنَطِّق في يسر وسلاسة، ويوم الـمُنخُل بعد طحن الغلة والذرة.

يومان تجتمع فيهما المريدات، وتتزود منهما حفيظة بشوارد الأخبار والأسرار، الصحيحة والمدسوسة عن عمد، وكله نافع ولازم تعمل من حبته قبة، منذ كانت رداحة الموقف مع أو ضد يستويان، ومنذ كان له استدعاء لَدُنِّيٌّ[25] في نظم معلقات ردحها.

ويوم الخبيز تعجن، ثم تخطف رجلها في شأن من شئونها المتشعبة، لتعود لحظة أن يكون العجين قد خمر، لتحتل رأس مشهد المقرِّصة والمبططات، بالجلوس إلى الفرن، تؤلب أهاجي ناره في عينه الحمئة وتؤججج، وهي تلقي إليه بالرغفان، لتخرج كأدوار ردحها ملتهبة منتفخة مشربة بالحمرة.

وفي بيت النار من فرنها الداخلي، ينحدر كل لت النساء وعجنهن ولوكهن السير كلها، تلقمه وقودا يندلع ساعة الصفر من ردحها الجهنمي، المؤلب والمنفس معا لكل الغيظ والمرارات والأحقاد والعداوات، حبال من مسد[26] تربط هذه المآتات بالحياة.

هي حفيظة الفَسَكْرية[27] اللهلوبة، رداحة محب، وزوج فشار محب وسماكها والقائم بأعمال حميرها.

بالفعل وأنا معها، أضربها طبنجة.

قالت لابنها وهي خارجة.

ـ خلي بالك يا مسعد من أخوك السعيد اللي في اللفة، خلي بالك عليه من الكلاب والقطط، حاخطف رجلي لحد دكانة هندام وجايه طوالي، خلي بالك ياله.

ووقف مسعد على الباب، عين في الجنة وعين في النار، بين أن يخرج إلى أصحابه، أو يبقى مع أخيه.

ولجأ إلى الحل الوسط الشهير عندي، الذي يرضي الأطراف كلها دون أن يزعل أحدا، بأن استدعى الأولاد معه يلعبون، دون أن يبعد عن أخيه.

أتوا وفي يد كل منهم حفنة من تراب كانوا بها يتقاذفون.

تخطى أولهم عتبة البيت، وتلاه ثان وثالث، وأيديهم بما فيها تأكلهم بالضرورة، اقترب أولهم من أخيه، مد يده اليسرى الفارغة يزغزغه في إبطه ومشط قدمه، وأتى أشقاهم، مد يده الملأى بالتراب، داعب بظهرها ذقنه وخده، واستغرقته المداعبة، فتراخت يده، وتسلل التراب إلى فمه المفتوح، مختلطا باللعاب، فاسود، أغواه السواد بالمزيد من التراب والسواد.

وجاء الثالث ففتنه المنظر والفكرة الجديدة اللنج، أفرغ ترابه في الفم مرة واحدة.

وجاء الرابع فعجنه باللعاب، وملطه سادا به الفم.

وكان صوات، وقامت القيامة، ووقفت البلد على رجل، وجاءت الحكومة بعسكرها وورقها.

وقُيدت سابقة ترويها الشطوط كلها، وتتفكه بنا.

النخلة عمود حياتنا، إذ هي فضلا عن منافعها المعهودة، مقياسنا للزمن، وحساباتنا بظلها لا تخيب أبدا، بالرغم من اختلاف طول الظل واتجاهه مع خطوات الفصول التي لا تتوقف، ونمو ظلها نفسه مع خطى الأيام.

أما القمر فمقياسنا للشهور لأنه صانعها، وأهم شهورنا بالطبع رمضان، ومقياسنا له لا يخيب أبدا، هو عم أحمد هيبة شخصيا.

على باب بطيخه الذي على وش الدنيا، يقف، والسيجارة التي لفها فأحسن برمها، وعلبة الكبريت بالحكاكة في وضع الحك. كل هذا في يد، وعود الكبريت المتأهب في اليد الأخرى.

إذن نحن في رمضان، وفي انتظار المدفع.

وليس شرطا أن يكون المدفع قد أزف، لأنه يفعلها طول النهار، كلما زن عليه الكيف.

كل منهما حاج ومحمد، يطفشان المصلين من الجوار في صلاة التراويح، التي يختم فيها الإمام المتأني جدا الشيخ عبد الحميد، القرآن كله في رمضان، كل ليلة جزءا.

الحاج محمد مراد الصغير.. ساكن الحصن وصاحب دكانة القصب، أسرع الخلق طرأ إلى نوم في عمل، في طعام، في جماع، في صلاة، حتى إنه لينام في النوم ذاته.

ما سجد قط خلف الإمام، إلا وتخلف نائما لا يقوم، ومجاوراه يزغدانه بينهما زغدا.. أما في قرآن القيام الطويل، فإنه ينام جانحا دائما إلى شمال، ومن شماله يهرب المصلون، كي لا يتحولوا إلى جدار أو دِعامة. مرة واحدة تركوه لشماله الخاوي، فكبس عليه طائف النوم، فخر من طوله وقد شج رأسه.

وكنوه أبا النوم.

***

والحاج محمد الشناوي.. ضبع الفُجل في الإفطار من رمضان، وطول صلاة التراويح يتجشأ الغازات، كلما تألب مستنقع الفجل بالفقاعات، ويا سلام لو هبت ريح، ووزعت النفحات اللدنية على الأنوف الساجدة.

والحاج يبرر فعلته النكراء، بأن التجشؤ يريح معدته الملأى على الآخر، ويمنحها متنفسا وحركة، والفجل هو الملاذ العظيم.

إذن ما ذنب المصلين يا حاج، وشذا فجلك يطارد خشوعهم؟!

ـ يا خي، حد طايل؟! ثواب ونازل عليهم من السما!

وكنوه أبا الأرياح.

المحمدان الحاجان يبطلان الصلاة، ولا يتخلفان أبدا عن بطلان.

---

(17) «الخوف»: رواية للمؤلف من محب نفسها.
(18) أي يقفل بابها بالشنكل الحديدي الكبير. وتسميه محب الغراب.
(19) قالب الطوب الذي ينصبه أطفال محب في لعبتهم الأثيرة «أول خراء».
(20) جلد الابن يحشى للأم من الإبل، لتدر عليه اللبن.
(21) الشرشوحة: هي ذات اللسان الفالت المقذع.
(22) أجاز المجمع اللغوي «ست» فصحى، وتغاضى عن «سي» بمعنى سيد.
(23) أي خالة، وتنادي بها محب الست المسنة، أما أخت الأم، فتقول عنها «خالتي».
(24) القمح بلغة محب.
(25) رباني ملهم.
(26) من ليف النخل.
(27) هكذا تنسب محب إلى «فارسكور» بالاستغناء عن خدمات الراء الأولى وحرفي المد، وهو إجراء عربي مبين.

# زَرّ

**الصبيان الذين يملئون البيوت والحارات، وينفذون من بين أرجل الكبار، وهم يموءون ويشقشقون وينقّون، ويصهلون وينهقون ويخورون، هؤلاء الجن المصور والقرود القطع، أليست لهم حياتهم المؤثرة غير المعترف بها؟**

**لندع المجال لراويتنا الذي كلما كبر، انغرزت رجله في معجنة طفولته فلا يقوى على الخروج منها، راويتنا المعتمد الذي يغطس ويقب كلما غذذنا في السير.**

**الأشعة الأولى التي في صفرة التمر حنة على رءوس النخيل، فيبدو البلح في أعيننا الصغيرة الخبيرة التي تقيسه كل صباح، مُشَبَّحا أو مُخَدَّدا وخَطَته الحناء.**

**نبدأ يومنا بأن نسعى تحت النخل في مَرَشِّه، نَشِتُّ ما تساقط منه من جَنِيّ شقه القمر كما كنا نقول.**

**ثم نخرج إلى ألعابنا التي كنا نخلقها من الهواء، نضرب الزلطة بالزلطة، والصفيحة بالجريدة، والحلة بالغطاء، ومحار البحر نلصقه بآذاننا لنسمع منه ما عبأ لنا من صدى هدير، كنا نطفح بالسعادة ونحن نستنطق الأشياء ونقوِّلها.**

**وإذا لمحنا حمارا، تبينا أذكر هو أم أنثى؟ فإن طلع ذكرا، تسلمنا أذنه نُسِرّ فيها أن «زَرّ». نظل نكررها حتى يحشرج بالكلام، ويجرش بالنغم، ثم ينسلك في صوته الجَهْوَرِيّ بالنهيق. وهي قمة ما نحصل عليه من سعادة، كان اكتشاف حمار ربطه صاحبه، يصرفنا عن أغلى ما بين أيدينا. كنا نحب الحركة، والنهيق حركة الحركات كلها.**

**فإذا أطل علينا فراغ، جرينا إلى الخشبة مجمع المصارف والمساقي، نسلم إليها أجسادنا، غير عابئين بما فيها من بلهارسيا أو أنكلستوما، فللعلم المكان النظيف المعقم في رءوسنا، وللحياة**

الحياة، وماء الصرف يلاغي جلودنا، كان الملعون يحولنا إلى مَهْرَشة، نستعمل فيها شقارف أظفارنا.

إلى أرض الرَّبَّة[28] نتجه، نقطف العود، من ساقه وبأوداجنا المنفوخة وأنفاسنا نصنع النغم.

فإذا صادفَنا في مسعانا حصى أو طوب ملقي، زعق فينا. تعرَّض لأقدامنا صدَمَنا، لا يترك لنا خناقا حتى ننحني ونلتقطه، وعند أول فانوس يلُوح ننشُن، فإذا انكسر انفثأ عنا غيظنا من هؤلاء الذين لا يُسمَّون.

حتى إذا زامت بطوننا، وشقشقت عصافيرها، نزلنا إلى البحيرة. وبين أقدام الغاب الراقص، نسدّ الأحواش، ونحلق ونحوش، لنخرج بمشكاكين من السمك، ويأتي دور الشوي، وينسرق منا واحد إلى أقرب أرض ذرة، يخلع منها كيزانا بعددنا تماما، لأن ما يزيد حرام، يعاقب عليه الله والفلاح، لنأكل السمك بالذرة المشوية خبزا.

وحينما تغيب الشمس، وتشبع غيابا، ننسلت من طبالي العشاء، ولو تعرضنا لكل ألوان العقاب والتعذيب، ومع كل واحد بوصته، نقوم بجولتنا التفتيشية الليلية عن النور في الظلام، وعن الظلام في النور.

بربطة المعلم نمضي متلاحمين بالصمت والظلام، فالليل يجمع ويربط، والنهار يفكك ويشتت.

الغابة التي أحسن كل صبي انتقاءها وتثقيفها، من الغاب الكرومي المرموق وقد عاينها مع أخت لها بين عائلتيهما على ضفة الترعة منذ أمد، وشقَّر عليهما يطل ويجس ويعس، إلى أن تطيبا وتنخرطا وتفوحا بالنضج والكمال، وتناديا يده أن انتزعينا، ولكل شيء ميقات.

وفوق أعلى تعريشة في بيته أو غيطه، وبجوار عش زنابير يريد طينه أن يجف، تلقي الغابتان ابنتا العم، لليل والقمر والنجوم والطل والشمس والهواء، وطنين الزنابير، النصف الأول من شهر قمري، يسويهما القمر من أوله على الهينة. ثم تقشران بعناية وتلبلبان، وما كانت منهما أكثر مياسا وطراوة، فهي صنارة الصيد، والأصلب بسيخ حديدي تزال جيدا من العقد في عُقَلها، لتنفتح ماسورة سالكة، تتعامل مع الهواء الطليق.

إن كانت الليلة لا يبين لها قمر، مضينا إلى الدُّور بالدَّور، ونحن الحريصون على أرضية من الظلام الخرمس، تنسطر فيها فوانيس الشارع قمرا ونجوما، فإذا بمحب ذيل يبصبص للسماء.

هدف الليلة الـمِسرَجة داخل البيوت.. ومسارج محب جميعا مكانها فوق قاعدة الشباك، ومن ثغرة والشبابيك كلها ثُغَر، ننفذ خراطيمنا وننفخ، فينطفئ السراج ولا يعود إليه النور، لأن الكبار بسلامتهم، يعتقدون أن هواء ليل الله هو الذي أطفأ، لينخمدوا نائمين.

أما الخروج الأعظم الذي لا يتخلف منا عنه أحد، فهو خروج الخميس ليلا، ليلة الرفسة كما يسمونها متغامزين.

وسماعات الآذان المركبة في فوهات الغاب، تلتقط الأحاديث المتقصعة، والجمل المقطومة، والأنات الممدودة المنغمة بين الأزواج.

وحينما ينطفئ النور بفعل فاعل، تتمدد الأصوات أكثر وتعلو وتستبين، وتخرج الأسرار.

أما سر الأسرار الذي كنا نقف إليه محنطين، فهو ساعة تصل الأصوات إلى حمياها وذروتها، وفجأة تقطع المرأة الحبل المتوتر، لتعود به إلى الحياة بمطلب من مطالبها، ولا تنتهي المساومة والسعر والعودة إلى سورتها، إلا بعد التسليم والتسلم.

كل المحصنات والحرائر يفعلن ذلك، وتعود الرجال أن يشحوا طول الأسبوع، ليدفعوا «الخميس» لكل من يعمل لهم.

لم يكن ينجو من عسنا هذا إلا البيوتات، التي لا تودع أسرارها وكنوزها إلا في الدور العلوي، ولئن لم يكن بوصنا قزما، فنوافذهم محكمة لا تعرف الثُغَر.

أما إن كان القمر بدرا متربعا، فالعس يقتصر على الفوانيس التي نصبها الناصبون سبيلا يسقي النور على رءوس الحارات.

الفوانيس الزنيمة التي تحجب عنا منازل القمر.

على البوصة أن تمتد من سُكَات لتخمد أنفاس الفوانيس، وتخرس هلوساتها الإلحادية.

فإن قصرت قامة البوصة، ركبنا عنق بوصة في عقب أخرى، ليمضي النور إلى حيث ألقت.

وكل هذا البرنامج الساخن يُلغَى من الفور، إن كان كلوب عم مصطفى مراد معلقا في ناصية بيته المطلة من أقصى ميدان الجامع.

عم مصطفى العجوز القصير الضامر والمستهبل، بدل أن يستجلب نورجا وزوجين من البهائم، تكلفه الشيء الفلاني، يعلق كلوبا ليس غير، والباقي كله بالمجان، وبذمة وشغف شديدين.

والحكاية أن عم مصطفى، وتخصصه زراعة الجزر من أجل تقاويه، تقاوي الجزر ليس غير، عين التخصص يا عم مصطفى!

بعد تقليع الشجيرات وتجفيفها في الشمس، تأتي الدراسة بالنورج، لإخراج البذور من جيوبها.
يفرش الحُزَم في دائرة، ثم ينصب كلوبه فوقها.
والكلوب الناعس الذي يذيب هالة من جسد الليل، يجتذبنا نحن الصغار، نتوافد مع أسراب الفراش وأفراس النبي والناموس والهاموش، وحينما نتلابط ونتفقلس ونتنطط ونتعاجن ونندمج نحن النوارج البشرية، لا تبقى بذرة في جرابها، ينصب المستهبل الأريب نصبته هذه، ثم يوليها عرض أكتافه، لينام ملء جفونه حتى الصباح.

أذن خشبية واحدة، والأخرى مقطوشة، هي المسرح للمعارك الجارحة. للنفوذ والسلطان بين جنسي الحدأ والصقور وحدهما، دون أن يفكر جنس آخر من الجوارح أن يهوب، والطائران جرى انتخابهما من قبل في سمائهما انتخابا تمهيديا.

هما متواجهان، والحرس خلف طائره على شكل قوس، والقوسان في حركة عصبية شديدة التوتر، ومركز الدائرة فوق رأس المئذنة، وبقية طيور السماء من كافة الأجناس قد تتمهل إن كانت شبعانة، أو تلقي نظرة إن كانت مستورة، أو لا تنبت رغبة أصلا إن كانت معلقة في طاحونة القوت.

والصبية مِن تحتُ دمى تحركهم أيدي الأحداث من فوقُ، ونبضهم يمسك به القوس العصبي.

وأفراد معروفون يتحمسون لجنس الصقور، من ذوي الدماء الحارة، في قطاع صارخ يشق كل الطبقات، بزعامة عم إبراهيم العرباني الكبير، الذي يحوم حول الجامع في دائرة واسعة، يتفقد تحركات قواته، ونظره إلى فوق، وعصا الماريشالية تحت إبطه، كرومل الصحراء قائده الروحي.

وذوو الدم البارد، وهم القلة من أصحاب النظرة النفعية، يتزعمهم الدسوقي البدويهي، الذي يبرر لهزائم الإنجليز، ويتنبأ بالانتصار المبين، وهو داخل دكان بقالته لا يريم.

ومنذ بشائر المعركة الانتخابية، وهو يعلق على باب دكانه بوسط ميدان القهوة، صورة كبيرة للحدأة، حارت البرية من أين جاء بها، إلى جانب صورة تشرشل بعلامة نصره الشهيرة.

مع الشعاعة الأولى تبدأ المعركة، وقد تستمر ساعات، وحينئذ تركب غيلان الحزن أرجل الصبية، وعلى وجوههم تنحاش الغيوم، لأن المعركة حتى الموت، ولن يحصلوا منها إلا على جثة

لا تقول لهم شيئا.

فجأة وفي زوايا حادة، يتهاوى جناح مفرود، مروحة يدوية استعصت على الانطواء، والأيدي المشرعة حراب متزاحمة، يطوحها حدة انكسار الجناح، والأريب من لا تشترك يداه، فغالبا ما ينعطف الجناح إليه هو البعيد.

وفجأة أيضا كالصاروخ ينهبد في الأرض جسم الطائر المثخن.

الصقر، وفوقه بعد هنيهة كالقلع، جناحه الباقي المفرود.

الصقر هو الذي هوى يا عم إبراهيم.

مضى عم إبراهيم العرباني على وجهه، وأنفه كمسمار الساقية المحمي في يد الحداد، رأس عصاه منكس إلى الأرض.

حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة، ولمح على باب لدوده الصورتين الجارحتين، أصلح من شأنه وشأن عصاه، وتنحنح مسلِّكا.

حتى إذا ما حاذى الدكان، قطب حاشدا كل أعضاء وجهه في اجتماع واحد، ووجهها جميعا في نظر حاد إلى فوق البعيد، ثم زعق:

«الإنجليز الجبانات جبانات».

وضرب الأرض بخفة، وفَطَّ مسرعا.

***

تنجاب سماء المعركة، وتنغلق محب على نفسها كالفراخ في أركان بيت الفرن.. ومع الشعاعة الأولى دائما، تشخص العيون الصغيرة إلى أذن المئذنة الوحيدة، حيث تبدأ طقوس الغلبة.

وعلى شاطئ بحر الصغار، ولأول مرة، يخرج الدسوقي البدويهي، وفي لحظة التماس بين الشعاعة والأذن، يحط السلطان الجديد على عرشه.

وبعارضة الأذن تمسح الحدأة شدقي منقارها بين مخالبها، عندها يقول الصبية، وخيال ابتسامة يرتسم:

ـ الأسطى أحمد بيجلخ الموس.

وإلى قرن قرص الشمس المورد المطل، ترفع رأسها، مدببة منقارها وكتفي جناحيها، إلى رأس القرن، وفي انسياب وسموق يستطيل الذيل، وإلى محب من تحت تلقي بكِسرة نظرة منتشية، وبمسحة من تجهم العظمة، تستردها فاردة ذيلها في خيلاء، ثم تذرب شيئا أبيض.

والأذن من تحتها ملطخة بالبياض التاريخي الجارح، بياض ملكي تراه عين السائر في الحارات المؤدية إلى الجامع، وكلها تؤدي إليه، تراه العين أكثر، والسحب القاتمة تنفرش خلف لطخ البياض أرضية سوداء.

سمع صالح الكلاف خطوات سيده الطاعن في السن، فأسرع يقفز عن الحمارة، ويلقي بنفسه فوق بعض القش داخل الحظيرة، متخذا وضع النوم.

ودخل السيد، فألقى نظرة شاملة، رأى بها الوضع كله، فقال:

ـ يا صالح، آمنا بأن النوم سلطان، طيب وإيه اللي قيد الحمارة بالشال؟!

---

(28) هي البرسيم بلغة محب، وهي في الفصحى البرسيم بعد الحشة الأولى.

# وتــريات الـغـــاب

أهي الأذن أم ما وراءها؟

الحاصل أنني أستمع إلى صوتين متباينين تماما، صوت بعيد مرهف الرقة والعجيب أن الآخر قرار وقريب، وكل أذن تختص بواحد لا شأن لها بالآخر، أذنا حمار، لكل واحدة القدرة على الحركة المستقلة والتوجه المنفرد، ثم أدْمِجُ الصوتين أو أفصل، ثم بيت القصيد حين أترك للأصوات ذاتها ـ وكأنها الأسراب في لعبها ورحيلها ـ تندمج وتنفصل في أداء حر خالص.

وأصل الحكاية أن من البحيرة الملحة، وبركها المملحة، حيث ينبت الغاب الريحي الرفيع، ويتكاثر كالفِرَّة [(29)]، من هذه البحيرة إلى موقعي فركة كعب فلاحي، أي بضعة كيلو مترات في عرف الريفيين، بحكم أنهم يعتمدون على أرجلهم في حركتهم.

من هذا البعد أسمع عزف ذلك الغاب الريحي المرهف، حينما تحرك يد النسمة المدربة أوراقه المشرشرة، ثم تترك المجال للمناشير تلعب على المناشير. هذا الريحي العازف هو مواطني الأول، لأنه عماد الحياة في الكون الـمْحِبِّيِّ والفساد والاقتصاد. هو السايح المشخشخ بأوراقه الرقيقة حادة الطبع، التي قد تسهِّيك لتجرح منك إصبعك.

مع طلعة كل فجر تمتد شقارف[(30)] محب إلى هذا الغاب الريحي، لجة بعد لجة، تحش أصواته، وتحزمه في طرود. وعند مطلع الشمس يتهادى بها الجمل صابر، وعلى إيقاعه الجنائزي تشخشخ وتهمس، ورءوسها تسحل وتتمرمط في الأرض، وألسنتها تلحس غشاء الندى وهي تسف التراب.

والصغار دون قامات المناسج، ينضمون إلى العجائز الطاعنين، يقشِّرون هذا الغاب إعدادا لنسجه، وأجرهم القش الذي يحزم ليطرح فوق الأسطح طاقة احتياطية للأفران، وللحريق المرتقب.

والغاب كالناس معادن وطبقات، فعلى النقيض من الريحي، هناك الكرومي الأبيض الطويل الفارع، يعتلي جسور الترع العذبة الحادة، لتمسك أقدامه الجسر المنحدر، وقيل الجسر هو الذي يمسك بأقدام الغاب البيضاء كالـجُمَّار، المنسابة في زوايا حادة وعصبية وحرة، لا تمتد إليه الأيدي إلا بالطلب العزيز الخاص.

إذن للكرومي القرار بأوراقه الطويلة العريضة، والريح تميل عليها وبها ميلان العازف على الآلة الضخمة[31]، مع كمون أصوات المزامير المنحبسة في عُقَل الكرومي الطويلة.

وأذن مرهفة للريحي البعيد، والريح تلعب على أوتار الآلة الصغيرة[32].

الآلات الضخمة «العذبة» وهي ترغو مع الصغيرات «الملحة» في حديث مرسل ومنساب.

أما الحفل الساهر الرسمي المشهود، الذي تنصت له وتقرن كل أذان الليل الساهر، فمتعهده والداعي لوجوده، القمر بدرا، أسبوعا في وسط الشهر العربي.

البدر يتسلطن فوق أحواض الرز، وينزل إلى مائه يقب ويغطس، ويتلألأ ويتربع ليتجلى، فيلهب ذكر الضفدع، يشد أوتاره بالعزف المنفرد في قراره السحيق، وترد عليه جوقة الأنثيات المريدات في نشيد كهنوتي وغزل طويل، تحسبه الأذن السائمة رتيبا مكرورا. ولكل إناء طاقة استيعاب وسعة.

كانوا يصلون العصر في زاوية الشيخ إبراهيم، الذي دعا على أهلي بداء المحن[33] وما كاد الإمام يختم الصلاة بالسلام عليكم ورحمة الله الأولى، حتى دس مختار العلمي يده في جيب جلبابه، وأخرج بلحة مخددة، وقَرَش منها جزلة قبل أن يسلم الإمام التسليمة الأخرى.

نجحت بلحة في أن تخرج مختارا من صلاته.

يشق ليلي الصوت المقلوب، المتقطع، شقرف يغُز يحُش قلب الليل. تنرزع الأبواب على مصاريعها. يندفع الناس وقد قذف بهم منجنيق البيوت، متطلعين في الآفاق. آه النار هناك أهي. حارة الجامع. يعدون والجرادل والصفايح في أيديهم، وأطراف جلابيبهم في أسنانهم.

الناس أمام حريق الوشاحي، في هرج ما قبل التنظيم، النمل في جنون البحث، وطابوران متواجهان، واحد للأواني الملآنة، والآخر أقل عددا للفارغة، يأتي الآتي فيدخل بإنائه رأسا في الصف، منسلكا قادوسا في كبير هذه الساقية الهائلة الدائرة في عجلة.

والعمدة من بيته عبر ترابيع الرز على مشارف المدينة، يرى الألسنة فيخطر المطافي.. ودولاب المياه دوار والنار المجنونة. النار والغاب!

ويزعق زاعق: الله أكبر. الحاج محمد وصل.

أتى الحاج محمد عدس مهرولا وقِدَّة[34] البناء في يده. لحظة وكان في قلب النار، والرجال كالفعلة وراءه يطفئون من الداخل.

هو لا يستعمل الماء، بل يكتم النار، يخنقها وبما تطوله يده. بكيب[35] أو باب يخلعه، فإن لم يجد هد الحائط ـ وهو البناء العظيم ـ على أم رأس النار.

لم يكد يفتح له ثغرة إلى قلب النار، حتى ركبهم الجن، اندلعت الساقية جنونا، انهمر الماء في فيضان، وقاية لحياة الحاج محمد، الذي لم يعد يظهر.

أفرغت محب ماء الهري على قلب النار حتى انطفأت.

هؤلاء الذين أكلهم يومهم، وتركت الأرض في كعوب نسائهم شقوقا تحشى بالتراب صيفا، وتمعجن بالطين شتاء. هؤلاء الذين لا يجمعهم إلا فرح يزغردون فيه ويغنون كالتعديد، وميتم يعددون فيه كالغناء.

***

وبعد الهنا بسنا، يسمع الجرس الشهير، جرس المطافي المتصل، وتهل طلعة العربة الحمراء الصفراء الزاهية، والسلالم الطويلة المنضودة الشديدة النظافة، والخراطيم المطوية في نضارة، والقباب النحاسية اللامعة فوق الرءوس كفرسان الصليبيين.

الكل غادر المسرح يتفرج، وشبح ابتسامة يرتسم في أعقاب المأساة، والابتسامة تشوبها لذعة السخرية.

إلى ماء الهري يدلون فوهة آلتهم الشافطة، يمدون خراطيمهم، ويرفعون سلالمهم، وأخيرا تنطلق مياههم تطفئ المطفأ.

وعم محمد المغلاوي فلاح العلوة من خلفهم يقول: إلا الناس الطيبين دول، ما يروليش أرضي، ينوبهم فيَّ ثواب، بدل الميه ما هي راحه كده هدر؟!

تمثيلية «إطفاء المطفأ» التي تمثلها الحكومة، والتي ترفه عن القرية بعد تقطيبة المأساة، تنتهي والمكان الجدب عائم الشفاه.

***

ويومان بعد الحريق يمضيان، وكأن لم يكن قد اندلع في محب حريق، وفي اليوم الثالث يعرف كل دوره.

إن كانت النار قد التهمت البيت كله، فهي القصاع التي تملأ بطين الترعة والمساقي والقنوات، وهي المعجنة التي تضاف إليها حمرة الطوب وتراب الفرن والتبن الناعم، وهي القمينة التي تطبخ الطوب الأحمر، كل بيت لا بد أن يمثل، ما عدا البيوتات التي لا ترى في علاها إلا نفسها، فهي المعفاة جيبا ويدا، إلى أن يعود البيت بيتا، وتعود محب محبا، تمضغ يومها، وتجتر في ليلها أحزان معاشها، ويعود إليها كل ما انحسر عن عداوات وحزازات، كأنما قد صُرَّت ساعة الخطر.

ومع كل مبزغ شمس تتهادى مواكب الغاب حتى الضحى، غزْل مناسجهم بالنهار، وطاقة أفرانهم وكوانينهم وجُوَر تدميسهم، ووقود حرائقهم في جوف ليلهم الأعجف، في الشتاء الطويل المولول، وفي حدة طبع الصيف، حين تندى راحتي ببيع سددي المنسوجة، لبناء عشش رأس البر من جديد، وبريق الأمل يلمع في عيون الفتية والفتيات.

كلوا بامية، ووقعت عليه القرعة.

أمسكوا به عريانا ملطا، وكتَّفوه يدين ورجلين، حسب تعاليم اللعبة بينهم، ثم ألقوا به في تيار الماء بالترعة، وجروا في عكس اتجاه التيار، ليلقوا بأنفسهم عائمين إليه، لانتشاله قبل أن يسيحه[(36)] التيار أو يغرق.

وفي الجهة الأخرى من جسر الترعة الذي فوقه يجرون، لمحوا في أرض الطماطم، حبات حمراء تغمز لهم وتلمز.

سال منهم اللعاب، وسابت مفاصلهم.

وإلى النداء الأحمر اتجهوا منومين، وقد نسوا ما عداه، يمسحون ويزلطون من تفاح الفقير، حتى امتلأت البطون، وأسرعوا خارجين قبل أن يلمحهم الفلاح.

وعندما ارتطمت أبصارهم بدوامات التيار في الترعة، تذكروا صاحبهم.

أهم القتلة؟ أم حبات الطماطم الدموية؟ أم التيار المجنون؟ أم القرعة؟

المؤمن مصاب دائما، وفي مقتل أحيانا. هنيا له.

صحا الخلق على جاموسة، فوقها اثنان من العرايا الملط، يركبان خلفا وخلافا، وفي يد كل منهما غصن زيتون بأوراقه يسوقانها.

وكلما وقع نظر عليهما زلزل، وانفتحت كل ثغور وجهه في دوائر، وصاح وقد ذعر وتلخبط، إيه ده؟ مين دول؟!

ويسدد دوائر وجهه ليصيح ثانية: الشيخ يوسف والحاج عبده؟! ثم يخرس لأنهما من الثقات الأخيار، لم تعبهما عائبة، ولا نبا لسانهما بنابية.

وصمتت الخلايق، والموكب يشقهم، بالرغم من انضمام الصبية، وكأنهم في انتظار معجزة.

الرجال يشيحون بوجوههم، ثم ينظرون متضررين.

والنساء يسترقن النظر، ويضربن صدورهن: يا حوستي، يا نصيبتي، الشيخ يوسف. الحاج عبده!

والأطفال وحدهم بلا حرج، صمتهم من صمت الكبار، إلا أن موكبهم المتحرك حول الجاموسة كالخميرة في نمو مطرد، مضوا ساكتين وعيونهم تبحث عن دور، إلى أن نطق واحد بصوت خافت: «بالعين» فردوا مسرسعين: «يا الله السلامة»، حتى وصلوا إلى ميدان القهوة، فكان الحدث الأكبر.

اهتز أحدهما فوق الجاموسة على غير مألوفه، انتفض، تفلَّت منه الهدوء والرضا، حتى صار أمرَّ من اللص وقد حوصر فجأة.

لم ينظر قط خارج حدود عريه. كانت خلاياه كلها ومسامه تحس بمناظير ترصده، وتنفذ إلى داخله، كان يرى جيدا دون أن ينظر.

فقط ما دراه جيدا، أن يده الشمال أسرعت تخفي عورته من أمام، وأن رأسه وكتفيه وعموده، تتخذ وضع الجنين، وأن عينيه دون أن يعتدل رأسه تمسحان الأفق، تُنقِّبان، ويده اليمين في وضع الاستعداد الأقصى.

عَلَى خيشة منشورة على سور قهوة يوسف تثبتان، في قفزة واحدة كان أمامها، جذبها فردها وحول عورته لفها.

وقبل أن يستجمع نفسه في ساقيه، ألقى نظره إلى زميله فوق الجاموسة، رأى نفسه. كالقذيفة انطلق.

لقد زين الشيطان لعصبة الماجنين، أن يدعوهما للتفاهم على كوب من الشاي المخدر، حتى يتوبا إلى الأبد عن النصح والإرشاد كلما مرا.

في الربع الثالث من ليل خرمس، انفتح باباهما وأغلِقا.

لقد هَجَّا.

الحاج سيد هندام بميزانه الشهير الذي لا يطب إلا بحمل من الذباب، كان عائدا بحماره، متربعا فوق خُرجه الحافل بالبضاعة، وشفتاه الغليظتان مفشوختان على الآخر.

ويبدو أن الحمار كان يتضور حكا، يريد أن يهرش، وهي رغبة مشروعة لدى الأحياء، والحمار لم تعلمه أمه أن يهرش بحافر يده كما يفعل الخلق، بل بأسنانه للقريب الممكن، وبحكة في شجرة أو حائط، أو تمرغ في سباخة كأمل الآمال.

ودون أن يستشير الحمار الحاج سيد، اقترب من بيت الشهاوي المهجور على السكة بين القرية والمدينة، حيث تأوي عصابة زرزور الذائع صيت بأسها في الشط كله، وأغمض لها مركز الشرطة الأعور عينه.

وفجأة سمع الحاج سيد لغطا أخرجه من ملكوته، أطل من الشباك المفتوح، وقاب ذراعين رأى وجه زرزور نفسه، وانعقد على ما هو عليه.

وكل من مر به تبسم، ظنه نائما كالعادة والحمار يقوده، وأمام دكانه بميدان القهوة، بعد مسيرة ترابية طويلة، توقف الحمار.

لحظتها فقط، وتحت اللافتة التي كتبها على حائط دكانه:

«أتوكل على الله.

وامشي في حالك.

وبلاش أر.

هـــــه؟»

تحتها بالضبط، أغمى عليه.

وقبل أن يتبعزق على الأرض، تلقفه الجالسون على قهوة أبو العلا.

تعود عبده نعمان أن يقرأ الجريدة لمن حوله عن حرب هتلر، واعتاد كلما أتى إلى اسم وكالة الأسوشيتدبرس بالذات، وهو اسم يصعب عليه النطق به، نطه قائلا: ما علينا، وقرأ ما بعده.

وتعود سي إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية، كلما رآه يفعل، أولاه أذنه، حتى إذا ما وصل في قراءته إلى: قالت وكالة الأسـ.. «ما علينا».

قال له سي إبراهيم: لأ قولها.

وللشـــاعر أبي ربـــابة في ليالٍّ، أمـــواج وهـــدير، وغـــرق وزبَد.. لا يتخلف عنه إلا من شاف نفسه، ونأى به طينه[37] أو هندامه. يتعصبون ويتحزبون، ويتحتربون في صفوف أبطالها، فتتدخل الربابة لفض الاشتباك الناشب.

وعم مصطفى الجمل الذي ينشال وينهبد، إذا أصاب صفيه وأثيره من السيرة ـ العبد أبا القمصان ـ شكة خيارة، أو أصاب هو في مهمته، فيفتح فمه على مصاريعه صائحا زائطا، ويغادره مفتوحا، ينساه في وضعه ذاك إلى الليلة التالية.

وعم مصطفى تعود أن يأخذ راويتنا الصبي على حجره طوال السهرة، والصبي يندار إليه يتأمل تجاويف فمه، ويتجرأ مدخلا إصبعه في إثرها قبضته، كان الصبي يتلهى بهذا الكهف ذي السراديب والنتوءات عن السيرة وشاعرها والربابة.

والرابح العظيم من هذه السيرة، الوطاويط وهي تستفرد بمحصول الجميز المرتقب، تلتهم ما في الأطراف، لأن الفانوس الذي يضيء قلب الجميزة، هي بالفعل تهابه، إلا أن الجوع كافر.

وعادة ما يبدأ اهتمام معشر الوطاويط بالجميز بعد ختانه. أما الباط[38] منه، فلا يأبه به وطواط أو آدمي، لفقر حلاوته بالرغم من عذريته وكبر حجمه.

أما في أعقاب ليالي السيرة ـ والشاعر يتنقل بها من قرية إلى قرية في فلك معلوم، حتى يهل علينا الدور ـ فيتولى أمرها الأسطى أحمد من صالونه المجاور لدكان الحاج سيد، وهو أعلى من الشارع ببلاطتين.

على مسرحه المشرف، ومن كرسي الزيانة، ومن نسخة عتيقة بالية، يقرأ لجمهوره المسن باندفاع دون أن يتلجلج أو يلحن.

وأعجب ما في الأسطى أحمد، بحر القراءة الطامي، أنه إذا عرض له من أمور دنياه ما يستلزم إمضاءه، بصم بإبهامه، لأنه العاجز عن الكتابة أصلا.

والصبية لا تستهويهم سيرة الأسطى أحمد، فإذا لم يكن فرح أو مأتم، يجتمعون لدى شجر الجميز تحت أنوار الفوانيس، وبصحبهم وضوضائهم يقطعون دابر الوطاويط، لينجو محصول الجميز العظيم، وتسرح به بناتي في حواري المدينة وأسواقها.. يا اللي بتسقّط سكر يا جميز.

قالت الصغيرة: أنت قلت إن بلدية دمياط، كانت إذا كبر البغل في السن، وعجز عن العمل، سحبوه إلى التل، وضربوه بالنار ليموت، رحمة به، وتوفيرا لثمن طعامه ودوائه.

قال لها أبوها: إي نعم قلت، نبيهة من يومك..

أكملت: وجدي كبر في السن، ولا يغادر سريره، ولا يترك دواءه، ولا يتركه طبيبه، لماذا لا تسحبه إلى التل، وتضربه بالنار ليموت، رحمة به، وتوفيرا لثمن طعامه ودوائه؟

وخرس الأب.

كل يوم في الظهيرة يبعث الصبي بالصحن الصاج، وفيه التعريفة (نصف القرش) يشتري له عسلا وطحينة يتغدى بهما.

كل يوم حتى حفظ الصبي الدور، وصار يسحب الصحن في الموعد دون أن يسأل، إلى دكان هندام.

وفي يوم، ربما من باب أنه المعلم ـ وقد أصبح لصبيته كتابا مفتوحا، خطر له أن يخرج عن شريط المألوف، أن يجدد.

قال لصبيه وهو يسحب الصحن أبا تعريفة.

ـ استنى يا ابني، هو كل يوم عسل وطحينة؟

وحملت لهجته حدة التأنيب، وكأن الصبي هو المسئول، ثم شفَّت عن التهديد وهو يقول له:

ـ النهاردة تبعد عن العسل والطحينة، تغير شوية، شوف لك حاجة تاني..

وحينما اكتشف أن الحاج محمد يسمعه، قال يخاطبه وهو يبرر:

ـ عسل وطحينة عسل وطحينة، كل يوم يا سي محمد، على كده من كام يوم..

انفجر الحاج محمد صاحب الورشة:

ـ كام يوم يا حسن! وأنت بقى لك ست سنين ع المنوال ده؟ ست سنين عسل وطحينة، لما دمك زمانته بيلزق عسل (وغير من لهجته) أنت عاوز تغير؟ طب ليه حتغير، حتغير ليه؟ بس ليه بس؟! (وغير من لهجته) طب والدبان، دبان الحاج سيد هندام، دا كان يجيلك هنا هو، وياكلك، قبل دمك ما ينشف من العسل، (وغير من لهجته) كده كويس، كده عال، عال العال ـ خليك زي ما أنت ماشي تمام، ما تلخبطش ـ حاكم اللخبطة تجيب الأرض، (وغير من لهجته) ثم إنك حتفتح على نفسك فتوحة ما انتاش قدها، (وغير من لهجته) ارضَ بِقَلِيلِك يا حسن، أحسن لك ما تبصش لفوق.

وزعق حسن في صبيه المنتظر:

ـ خليك في العسل يا ابني، أنت لسه واقف؟

وانطلق الصبي، ومن خلفه صوت حسن يعلو ويعلو.

ـ امسكه من سوسة قفاه، ما تسيبوش، أوع يفلت منك.

قال الحاج محمد:

ـ أهو كده يا خي، أجدع من أجدع جوز أنارب.

كل عام في مولد أبو المعاطي، تعودت فرقة علي الكسار المرسحية أن تنصب في حارة العيد بالمدينة.

توقف القطار، ونزل علي الكسار، يحمل حقيبة يد صغيرة، لأن الذي يبيت فيه من ثياب هو ما يصبح فيه، نزل يتهادى وقد أمال العمامة على جنب، مطوحا بالشنطة في سبابته، والغزالة سارحة تماما.

خطا إليه ابن من أبنائي يعمل في المحطة شيالا، قال يقطع عليه سرحته:

ـ أشيل لك الشنطة؟

هز علي الكسار رأسه أن لا.

ـ آخد حتة بقرشين بس.

هز له رأسه بإيقاع أصرح.

ـ طب ستين فضة[39] عشان خاطرك.

خرج صوته هذه المرة أن طَوْ.

ـ طب قرش صاغ.

ـ طُوْ.

ـ طب تعريفة والبيعة زي بعضه خسرانة خسرانة.

ـ باقول لك طؤ لأ.

ـ طب نكلة[40].

ـ قلت لك طؤ لأ لأه.

ـ طب مليم أحمر، بس أدوق منك ريحة المعاملة قبل ما أموت.

ـ وبعدين وياك، كفاية رزالة بقى.

ـ ياه هي حصَّلت؟ وربنا المعبود اللي خلق الدنيا، لا أنت علي الكسار ولا حاجة.

ومضى يرددها، وعلي الكسار من خلفه يتبعه وقد انحبس دمه.

أن يتحول المرء إلى مرجل، لا يفتأ يعبأ دون أن يصرف، إنه الخنفساء التي تقاوي التيار.

كان يختار التوتة الكاسية الفاردة أذرعها المعشقة، ليجد بين أيديها وآباطها متكأ وثيرا لقراءته، ولم يكن ذلك ليتوافر إلا للتوت داخل الدراوي، حيث يربي الفلاح جاموسه الحلاب.

وبينما كان في مقرأته فوق التوتة، إذ لمح أحد الفتية من معارفه، يتلصص حول الدروة مثلما يفعل، والفتى أمي، والتوت لما ينضج، حتى يغامر بدخول الدروة الحصن، تُرى ما وراءك يا فتى؟

وأقفل الكتاب، وأسلمه إلى كف من كفوف التوتة، ومن خَصاص الأوراق شرع يرقب.

حرك عصفورة الباب الضخم، حمله من طرفه حتى لا يَصِرَّ [41]، ولم تكن أبواب الدراوي تعرف الأقفال أو الطُّبَل[42]، وإن عرفها الفلاح في بيته، مع أن الدراوي تضم كل ثروته وجدوى حياته.

دخل ورد الباب، وإلى جردل الشرب المركون اتجه رأسا، وبيديه حمله حتى ينخرس، وخلف جاموسة عوان[43] كفأه واعتلاه.

ومن عرشه من فوق، لم يتمالك نفسه، أفلتت منه ضحكة مجلجلة، جفلت منها الجاموسة الفتاة، فلطمت الجردل برجلها مذعورة، فأطاحت بفتاها في المعجنة من تحتها، وكلما تحرك وطربش للخروج، انعاص أكثر حتى خرج في لهوجة وقد التاث واحتاس، وانطلق كالسهم مخلفا جُرَّة متصلة، إلى أن اعترضته قناة، فألقى بنفسه فيها.

أما هو، فحينما نزل عن التوتة، ألفى عنزا بوزها في الأرض يقمقم[44]، وذيلها القصير جدا من فوقها ملفوف على نفسه مرفوع، وقف ينظر يراود نفسه.

عم محمود الخوجة عجوز لا يريد أن يعترف أو يسلم بأفاعيل السن، بل جنح إلى تماحيك الشيخوخة.

ماتت زوجته ونام لأول مرة نومة العازب، فعاوده الوله القديم جدا بالنساء، وأصبحت توقظه من أحلى نومة، خيمة الغجر المنصوبة، صحيح كما يقول بعد مناهدة معه، هي تحويشة المية، لكن برضه لأ. وأروه هانما، النَّصَف[45] العايقة التي تقرط قرطتها[46] مائلة على حاجبها الشمال السائب منها، ودخل عليها.

ـ هيه؟ خير يا عم محمود؟

ـ خير اللهم اجعله خير، الله، انتو مالكم كده زي الديوك النافشة، فاردين عليّ قلوعكم ليه؟

ـ لا أبدا، بس عايزين نتطمن عليك.

ـ عال العال، بس البنت ناقصها شوية مجاوبة.

ـ دي تيجي مع الزمن يا عم محمود.

ـ زمن؟ زمن في بطنك منك له، كان ناقص عليَّ الزمن كمان.

ـ يبقى مفيش غير إنك تتساير معاها، وتاخد وتدي.

وذهب إليها عم محمود:

ـ يا بت انتي مالك ناشفة كده، ومقددة ومقلحفة؟ ليِّنيها يا شيخة لاجل النبي.

حتى إذا ما لينتها، قال لها:

ـ إيوه يا ختي أيوه، هو الملعوب ده يجوز عليَّ؟ اشخلعي لي يا ختي اشخلعي.

**وحينما التموا به، قالوا معاتبين:**

**ـ الولية غُلُب غلابها معاك يا عم محمود، تسكت: أنتي مالك ناشفة كده؟ تطري: أيوه يا ختي، العبي عليّ. الولية عداها العيب، يكونش يا عم محمود والله أعلم ـ المزراب هو اللي عطبان؟**

**ـ فشر في أصل وشك منك له، اللِّوِن فيكم إذا كان يلد عليه، ييجي وأنا أوريه بأن الله حق.**

**ولكن عم محمود حينما يختلي بالحاج محمد صاحب ورشة الموبيليا، ونجيّ كل مأزوم، كان صوته يتلون بالأسى، وهو يخر له بهمه.**

**ـ يا سي محمد، أنا باحلم أحلام وحشة قوي، باقوم من النوم مفزوع.**

**ويكتفي سي محمد بأن يسايره بعينيه وحدهما.**

**ـ باحلم بأن المزراب بتاع البيت انخلع، وأحاول أركبه مفيش فايدة.**

**فلا يملك سي محمد إزاء هذه الملمة للمراهق العجوز المحاصر، إلا أن يخفف بالتنكيت الأقرب إلى التبكيت.**

**ـ ما داهية إلا يكون المزراب طاله السوس يا عم محمود.. على كل حال ابقى هاته الورشة نغرِّهولك.**

**ويسرح عم محمود بعيدا وقد اكفهر.**

---

(29) التي تصيب الفراخ فتعصف بها.
(30) الشقرف هو الشرشرة التي تحش البرسيم والرز والقمح وتقرط القش.
(31) لعل محب تقصد آلة التشيلو.
(32) لعلها آلة الكمان.
(33) ويفسرونها بالارتخاء، نظرا إلى أنه محنة المحن.
(34) التي يحاذي بها الطوب عند البناء.
(35) منسوج البردي، والكيب أحنى من السدة التي من الغاب الريحي.
(36) يسوحه بلغة محب، أي يذهب به بعيدا.
(37) أي ثروته وأرضه التي يطلقون عليها الأطيان.
(38) ما لم يختن بأن يقضم المشرط من الثمرة قضمة، تكشف عن جوف أبيض مشرب بالحمرة، وشفة بعدُ تجلل بالسواد.
(39) قرش ونصف.
(40) أي مليمين.

(41) يصوت.
(42) أي الكوالين.
(43) متوسطة العمر.
(44) يجمع طعامها من الأرض، وهي لغة القرية وعربية معا.
(45) الكهلة: أي من الثلاثين إلى الخمسين.
(46) المنديل أبو قوية.

# مـا بســـــش

بينما كانت العربة تمضي بحمولتها من الرز في أمانة الله على الطريق الزراعي في حضن الترعة الشرقاوية، إذ انقض عليها أحد الحنانوه كالقضا المستعجل، أوقفها على جنب، ومن سكات حل الحصان. وكلما أتى العربجي حسا أو حركة أو اعتراضا، قال له زاغدا، فيداه مشغولتان، وخيزرانته عُدَّة شغله تحت إبطه.

ـ أنا أعرف المصلحة فين، ما تعدلش عليَّ.

وحينما أصبح لجام الحصان في يسراه، وخيزرانته بيمناه، ملك الموقف، قال وهو يهري يدي العربجي ورجليه وصدره وأكتافه وأطرافه، فرشة وتمهيدا:

ـ يعني حتعرف أحسن مني؟ حتعرف مصلحتك أكتر مني يا بني آدم؟!

يرد العربجي وهو يتراقص نائيا متفاديا:

ـ طب موش بس لما نوصل النقلة؟!

ـ ما بسش، النقلة حتوصل حتوصل، والبيع نؤجله ليه؟

وبلسوعة تترك في ظهر يده أثرا:

ـ ليه نؤجله؟!

ـ يا سيدي موش عاوز أبيع، أنت شريكي فيه؟ هو الحصان بتاعك واللا بتاعي؟! شيء غريب يا أخي.

وبدفقة على ظهره، وببرود:

ـ لأ بتاعي.

ويسدد إليه واحدة في منابت الرقبة من القفا:

ـ طلاق تلاتة لهو منباع يعني منباع، ودلوقتي حالا.

ـ يعني أبات في الطريق الزراعي؟ وفلوس الخلق موش نوصلها الأول؟ وبخيزرانات ودية معاتبة وحانية.

ـ وأنت زعلان ليه؟ أنا حاجيب لك الأحسن منه.

وبلسوعة واحدة في جُمع صدره، يغمس بها كلامه:

ـ طلاق تلاتة حاجيب لك سيده، ودلوقتي حالا.

وَجَم العربجى وخَرِس، وشرع يرقبه وهو يسحب الحصان ماضيا به إلى صاحب جديد.

وبين يدي عريش العربة، جلس القرفصاء، ودفن رأسه بين ساعديه ورجليه. ثم أجهش في البكاء.

وبعد غيبة عاد، ساحبا حصانا مسلولا، وبين يدي العريش كسكسه.

ومن خلال دموع متحجرة في زاوية، قال العربجي وهو يتنطط فجأة، ربما من حلاوة الروح:

ـ عليَّ الطلاق ما هو بايت.

رد السمسار وهو يتقرفص من طوله:

ـ طلاق تلاتة حيبات، ويصبح يشد العربية.

صحيح أن الماء كان من بلاصها على صدرها يَشُرُّ، وأنها ككل بنات الريف، يلبسن لدى العمل ـ وكل يومهن عمل ـ الجلباب على اللحم.

صحيح أن نهودها تفط وتنط وتتواثب، وأن الثوب بلون النهد ملتهب، وهو يلتصق ليحترق بسواد الحلمة.

صحيح أن صدر حورية محط أعين الشباب، وصحيح أن الشباب يلقون في أذنها بالكلمة الحلوة.

إلا أن شابا من «طريطر» المجاورة، ترك الباب للسانه مواربا، تفلت منه كلمة غَزِلة، التقطها واحد من محب، وانطلق بها إلى محب.

«عوض من طريطر، بصبص لحورية».

صحيح أنه معذور، وأنه من نِفسه، لكن كيف وهو الغريب؟!

ولم يكد المصلون ينصرفون من صلاة المغرب، حتى كان الخبر على طبالي العشاء، في الضحى عقد فتية محب اجتماعا طارئا في حارة البوابة النائية عن مجتمع الكبار، وقرروا بقبضات أيديهم أن يبادروا من فورهم بالردع.

ومن الفجر عبأ كل واحد حجره بحمل من الحصى المدبب، وتحت الآباط عصى مملوصة من أفخاذ الزيتونة والمستكة، ومن أذرع التوتة.

وعلى مشارف الترعة حول مدخل القنطرة، اتخذوا مواقعهم من ضفتهم، وقدم أول شاب من طريطر، على عماه قدم، وإياه فزَّعوا. رنُّوه علقة ساخنة يحلف بها عمره، وعلى طاقيته استولوا سبيَّه وأمارة.

وعاد الفتى إلى طريطره يحمل أوجاعه، وضياع طاقيته شرفه.

وبين محب وطريطر تكهرب الجو، ويا معجل ما يسوء ما بين القرى ويتلبد.

أما «الطواويس» جارة محب على ضفة الترعة نفسها، ويفصل بينهما هري مائي، وأرض الزوايدة والفاخورة، وتدور بينهما عبر الهري معارك التراشق بالطوب، معارك حبية للتدريب والشحذ، ويتطور الأمر لا يستغني، إلى ثارات صغيرة وكِسَر أحقاد.

أما هذه الطواويس، فقد أرسلت شبابها لنجدة محب، مع أنها تواجه طريطر على الضفة الأخرى من الترعة.

على الجانب الأيسر من القنطرة، عسكر فتية محب في دوريات، وعلى الجانب الأيمن عسكر الحليف، وتناثرت أكوام الذخيرة من الحصى المدبب المنتقى.

ولم يعد أحد يعبر. غيرت القرى على الضفة الأخرى طريقها عبر محب إلى المدينة، إلى طريق الترعة البعيد البعيد.

وأصبح كبار محب المنتفعون ـ وقد انقطعت الرجل عن بقالتهم وقهوتهم ـ يبيعون الكساد. شح البيض العملة، والجبن وأقداح الغلة وكيزان الذرة، انقطع حبل التعامل ولم تعد تتعامل إلا مع نفسها، وأدمنت أن تكلم نفسها قاعدة ماشية.

وتغيرت السحن، الأبناء يبغون الكرامة، والآباء المنفعة وداخل البيوت انتقلت المعركة بضراوة، تبدأ حينما يطبق الليل على القرية حتى يفعصها.

وانسحب الأبناء من أرض المعركة، ووجوههم منبطحة، وحينما رأى حلفاؤهم ميدان العمليات خاويا، انحسروا إلى طواويسهم نادمين.

وأصبح الصباح فإذا بفتية طريطر المعادية، يعسكرون في حارة البوابة. هجوم خاطف مباغت، وفي القلب من عدوهم.

وكلما توافد محبيٌّ إلى حارته، رنوه العلقة في عقر داره، واستولوا على طاقيته شرفه، صادوهم فرادى، وفي الضحى عادوا إلى طريطرهم غانمين طواقي محب وشرفهم.

وآب الأبناء إلى الآباء ـ وهم السبب ـ مشرطين ممزقي الثياب ملطخين بالدماء، وإليهم نظر الآباء دون أن ترمش لهم عين، قائلين في تشف: تستاهلم. بدم.

قالت طريطر فيما قالت: أليست محب هي التي اصطفت لجيش نابليون وهو يعبر إلى دمياط، بالقلل المنداة في حمارة القيظ؟!

فأكملت محب وهي تغمز: ولكن نابليون يا طريطر هانم، مرَّ دون أن يهتك أعراض البيوت، إيه؟! من كان بيته من زجاج يا طريطر، فلا يقذفن الناس بالطوب.

وأطبقت القريتان فمهما معا.

وانحسرت الأحداث عن مطارح[47] الكلام، وانزلقت لتسقط في زوايا النسيان، إلا قرون استشعار لم تنطو في أغمادها كما كانت، لأنها انلوحت منذ البداية، وعجزت عن الدخول والعودة، عز عليها أن يحدث كل ما حدث بلا ثمن، هكذا هدرا، تلك الأحداث التي كان سببها التاريخي امرأة.

ذلك الفتى عوض من طريطر، الذي نال عنه خروف الفداء العلقة التاريخية، تركت فيه الأحداث لحورية نحتا غائرا.

في السر والخفاء، تحرى واستفسر عن تلك الحورية.

أبوها فشار محب الأشهر، وأمها يتودد إليها الكل، ويكتفون شرها، رداحة محب الأولى، الاثنان من الشخصيات العامة الذائعة، والبنية التي تربت على الفيض، محط كل الأنظار. حد طايل؟!

ومن باب النافلة، وإمعانا مع حب الاستطلاع، مضت عائلته في تقصيها السري، ألفوا أخاها الكبير حشاش الحشاشين، أما الصغير فآكل الصابون، فإن لم يجده اقتحم البيوت من أجل

بروة ليس غير.

إذن العائلة تنفرد على الآفاق بمواهب صارخة، بعضها غريب، ولكنه جديد.

ثم إن الزفة الدامية التي قدمت للأحداث كانت مجلجلة.

وذهبت الطلائع، في أعقابهم المراسيل، لعل السكة بين الديكين محب وطريطر، بعد تاريخ طويل من نقار، ترش بحبات «الملبس الحمص» مع فصوص الملح.

الخروف مطلق في الجنينة تحت النخل، يجري وراءه يسحبه يدفعه، يلاعبه السح النح، يمأمئ له ومعا، يقدم إليه غمر الربة والحشيش وعيدان الذرة، يغير الماء، يفك القيد يربطه في النخلة، وأصبح المسئول عنه، ولا يذهب إلى فراشه إلا بعد انتزاعه منه، ولما كبر وجعلص، ابتدأ يركبه، ويلف به في نزهة بين النخيل.

المهم أنه اتخذ منه الصاحب الودود، يتحدث إليه الساعات، ويشكو همه، يشكو أباه وأمه وإخوته، لأنهم يضيقون بهذه العلاقة ويسعون لتمزيقها، والخروف يبادله الود، بدليل أنه مقبل عليه، عنيف مع الغير، ولِمَ لا يكون الصديق، وفي الدنيا كلها يتعلقون بالكلب والقط، أيش معنى الخروف لأ؟ هل وقع من قعر القفة؟

وأقبل عيد الأضحى، ونام الأطفال يحلمون بالجديد، واستيقظ غلامنا، أسرع يرتدي الحذاء الجديد الذي جعل بوزه، طول الليل ظاهرا من تحت داير السرير، وهرول إلى خروفه ليفرِّجه.

وجد الطريق إلى الجنينة على غير العادة مفتوحا مدهوسا، والبيت كله وبعض الأغراب في الجنينة في حلقة منهمكون تماما، ورأى.. نافورة من الدماء تندفع.. ومن رقبته.

صرخ وارتمى في الأرض وصاح...

وكل الكلام الذي تعلمه، صمم أن يخرج معا ليعبر به، ولم يخرج بالطبع إلا شهقات وقصاصات كلام وأشلاء، وسط تيارات عنيفة من الهواء.

وانعقد لسانه على ذلك.

أنفق الأب ردحا من العمر مع الدجالين، يأتي بهم ليعدوا للفتى مأكولا أو مشروبا، يقرءون عليه الأسحار، ليعرض فوق السطح العالي، من أذان العشاء إلى الفجر، ليشربه أو يأكله في الصباح، حتى استنفد كل الدجالين بمحافظة دمياط ومديرية الدقهلية دون ما جدوى.

وأقلع الأب عن البحث عنهم، لأنه استنفدهم.

ولكنه لم يقلع عن الخرافات والمخرفين.

وبرر قائلا: أصل ربنا ما أرادش.

كان مبنى المدرسة الابتدائية بالمدينة، يطل من بعيد عبر أراضي الرز أو البرسيم، وكان يخص خيَّالة محمد علي، وفناؤه الواسع يرى فناء المعهد الديني المجاور.

يقول راويَّ الرسمي، وكان أيامها تلميذا بهذه المدرسة الابتدائية: أضرب المعهد الديني، وتجمعوا في الحوش يزمعون الخروج في مظاهرة تطوف بالمدينة، والعساكر يتخذون مواقفهم، بالمتنزه الصغير الذي يتوسط الميدان الواسع، ويضم إلى جانب المدرستين، المحكمة والمحافظة والسجن.

قال الراوي: وانبرى لهم مدرس التجويد مبصرا وناصحا، وهو يشير إلى العساكر المستعدين، قال وهو يشبع الحروف من مخارجها، والمدات والغنات والإمالات الواردة، كأنما يرتل الآيات، قال:

«هؤلاء عساكر، معهم بنادق، فيها نااار».

بيت تحفة، بل متحف، ولكنه مهجور تماما، صار مجرد مدخل ملتو ومفتوح إلى جنينة الغول.

لبابه طبلة لسانها خشبي يمتد حتى يربو على المتر والنصف، يدخل في مجرى بقلب الحائط، أما المفتاح فيصل إلى المتر، تُرى أين الجيب الذي يسعه، أو الكتف الذي يحمله؟ ولكني أنصح باتخاذه عصا أو عكازة مع الحذر حتى لا تنخلع أسنانه.

وبيت الغول هذا يقع أمام بيت راوينا الفتى رأسا.

أما تحفة التحف في هذا الذي يقع على هِرْي الماء الذي يحزمني من جميع الجهات، فهو الحمام، تنزل إليه خمس عشرة درجة، خمسا في مواجهة باب الحمام، وعشرا تنحدر في زاوية قائمة إلى الماء، ومصدر الماء إلى غاطس الحمام، فتحتان تعلوان إلى مستوى الماء في الهري في الدورة المائية الثلاثية، ليدخل الماء الطازج الجاري.. وفي آخر يوم من دورة التحاريق، تفتح فتحتان أسفلهما إلى مستوى الماء الضحل في البحر ـ والهري هو بحرنا الممتد ـ لإفراغ الحمام العظيم وتنظيفه لاستقبال الماء الجديد.

أما البلهارسيا وهلمه، فلم تكن قد ذاع صيتها، وبالتالي لم يكن لها نشاط يذكر، لأن المعرفة هي التي تخرج أمثالها من قصورها العاجية، المهم أن غلامنا كان من طقوسه في كل ضحى، أن

ينسلت إلى الحمام ليمكث الساعات يتأمل نبتا في حجم الفولة الممتلئة، يخرج من الجدار الرطب، قرب المستوى الأعلى للماء.

في النهار تنتفخ كأسه، ويروق لونه ويزهو إغراء، وينفتح في استدارة البدر، رطب الجوف، يندع بما يسيل له لعاب الحشر الطائر، وكم يستهوي الناموسة والهاموشة فإذا شرفت، وذاقت عُسيلة الكأس، استحلت الحشرة، فأملت لها النبتة وأمهلت، حتى يقع ضيف آخر، فتنغلق عليهما فوهة الكأس بتؤده ومهل، وفيم العجلة والثقة بين الوحش الغض والفريسة متبادلة؟! وتفرز عليهما العصارة الهاضمة، وهم يا جمل، لتنفتح بوابة الجحيم من جديد على فيض الكريم.

نبات جارح، كالطير الجارح، وإن كان أجرح، لأن صيده يأتيه بكامل اختياره إلى عقر داره، اكتشفه غلامنا، وأبقاه في قعر ذاكرته قدس أقداسه، خشية أن يعصف به الصغار أو الكبار. لا يأمن.

الشيخ أحمد الدّنّون[48] كفيف، لفّت شهرة كفّه[49] الآفاق في انتقاء القماش بألوانه، يمسكه بين أنامله الثلاث، يجريها على القماش خلفا وخلافا، مصيخا إلى أنامله بأذنه، فيدرك اللون من الفور، يسمعه.

ينتقي ثلاث قطع، ولتلخبطها أنت أو البائع، ما شاءت لكم اللخبطة، ولتخفوها أصلا، وبعد أسبوع، آتوا به يستخرجها عزف أنامله إلى أذنه.

ربما كان لتركيبة كل لون، واختلاف عناصره عن غيره، ما يجعل لكل ملمسا خاصا وبصمة ونبرة، لا يدركها إلا مثل هذا الضرير الفذ، وربما لأنه من عتاة المؤمنين بالخرافات وكرامات الأولياء، من المشي على الماء والشفاء والعطب والحل والربط، والتواجد في المكان بسرعة الخاطر.

يعمل صبيتا[50] وخطيبا وزعيما للمبتدعين، والمناوئ الغليظ للشيخ عبد الحميد زعيم أنصار السنة، المتفقه في علوم الحديث والقرآن.

كم دارت بين الفريقين من معارك دامية، تلكأت في أقسام الشرطة، ولدى الأزهر بالقاهرة لإبداء الرأي، من انتصر منهما استولى على مسجد النعمان، وتحفّظ على مفتاح المئذنة أداة الإعلام، وانسحب الآخر إلى زاوية الشيخ إبراهيم، تأهبا لجولة جديدة، والحرب بينهما عوان.

إن تغنت المئذنة، وسيدت محمدا، فهو الابتداع والتزيد والبحبحة على التراث النبوي، وإن هي نادت الناس للصلاة وبمحمد مجرد، فهي السنة المحمدية، وكم أخذت هذه السيادة وأعطت، حتى صارت الرمز للاحترام الشكلي والتبجيل الظاهري، وعدمها الاتباع الحرفي والانقياد.

الحاج إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية بميدان القهوة، طلع في مخه يوما أن يفلح أرضهم بالطواويس بنفسه، فاقتنى ضمن مواشيه جملا بدل الحمار.

ويوم أن ركب جمله، وبيده السلطانية الغويطة، وبداخلها القرش الصاغ تعريفتان، ويا سلام لو كان خمس نكل، حتى تشخشخ وتعلن الإيقاع المجنون.

سار به الجمل من بيته إلى ميدان القهوة، حيث قِدرة فول عوض مراد، ليشتري بالقرش مدمسا، يومها وقف ناسي على رجل، توافدوا على بكرة أبيهم طول الطريق، الذي لا يتجاوز فركة كعب الحذاء لا الحفاء.

كان فرجة، لأنه وهو السيد المنيع، لا يستنكف سلطانية الفول، ولا تعنيه قط اعتبارات الشكل الاجتماعية، ثم كيف يحمي الفول من الانكباب على وجهه والانسكاب، من حركة الجمل الأرجوحية المتحدية؟

ومن قبلُ هَوِى الخيل، فاقتنى رهوانة يعلو جبهتها غرة بيضاء، يختال بها إلى المدينة، ليعود من طريق الترعة الشرقاوية، ثم اقتنى متوسكلا ذا قصف مدوٍ أعلى من صوت المطلَّقة، يلفت ويجذب.

بالفعل كان سي إبراهيم شياكة، يفعل ما بدا له، وذا ميول استعراضية.

***

وبجوار بيتهم العتيق، قامت دهرا قاعة ضخمة، جدارها يناهز المتر سمكا، وفي حائطها فراغ غائر، زانه يوما دولاب حائط تحفة، مشغول بالمنمنمات.

وشرعوا يهدمون القاعة، وفي القيلولة جلس عمنا إبراهيم مع عم مصطفى فلاح جنينتهم الخلفية، في ظل الحائط يتسامران، وفجأة أحسا بالحائط الهائل ينقض. وقفز كل منهما يبغي النجاة.

أما عم مصطفى فقد استجاب للغريزة، فجرى مبتعدا، ولكن طرف الجدار لحق به، فبططه شريحة لحم واحدة لا معالم فيها لملامح، إلا الإطار الخارجي للجسم كله، وقد حدده بدقة قالب الحائط المنقض.

وأما الآخر فقد أعمل زناد عقله اللماح، فجرى في عكس الاتجاه إلى الداخل، إلى مركز التقاء فراغ دولاب الحائط بأرض القاعة، فنجا بعد قضاء عام في المستشفى، وخرج، بعكازة لازمت رجله، أما تنقلاته فقد تفتق عن اقتناء عجلة نسوية تغنيه عن رفع رجله عند الركوب.

***

جلس إليه ابن أخته يوما يتسامران، وإذا ببطة تظلع في مشيها، فزغده خاله مشيرا بسُخر أسود إلى عرج البطة قائلا:

ـ أنا دلوقتي شايف نفسي تمام في المراية.

وأطلق ضحكة رائقة.

***

.. هدمت القاعة، وبيعت أرضها للجلادي صاحب الدروة والجاموسة بمرش النخيل المجاور، وأقام بها بيتا، استأجره الحاج إبراهيم نفسه بعد أن آل بيتهم الملاصق للسقوط.

وتناهى إليه يوما أن امرأة الجلادي تبحث لابنها عن بيت بعد أن اهتدى إلى نصفه الحلو، فذهب إليها في دروتها، وقال لها:

ـ إنتي ما قلتليش ليه إنك عايزة البيت؟

ـ أقول إزاي والكنون[51] ما يصرحش!

ـ ومين قال لك إنني بامشي ع الكنون؟! شوَّري[52] الولد، وقبل الدخلة تعالي استلمي البيت.

قال الراوي: كنا في المدرسة الثانوية المطلة على محب، وأبنوب أفندي مدرس التاريخ، يذرع بنا ساحة التاريخ الفرعوني المترامية، وأمام كنوزه يتلكأ، وفي محرابه يتحسس الخطى، وبصوته الملوَّن يلهب منا المشاعر، ويستولي على اليقظة والانتباه كله، كنا نستزيده ونحتشد له، مع أن ما يقول لم يكن على صلة بالمقرر أو الامتحان.. وكان كل ذلك يعبأ في مواجهة الأوغاد من الإنجليز المحتلين.

وعلم الأستاذ عبد الحق شرف الدين مدرس العربية والدين، أن في الساحة من يستولي منه على الأفئدة وذوات الصدور، وهو المالك لناصية اللغة والتأثير.

وانبرى له في حقله بـ«فرعون»، ومن نظر القرآن.

ونحن تلاميذهما نتحمس له أيضا كل حماس، وإن تناقضا من الأساس.. واحد يبني ويشيد ويزهو ويمجد، والآخر يهدم ويجتث في عمارة واحدة، والبناء والهدم في داخلنا نحن الصغار.

هل كنا نستشعر التضاد المخيف بين الحركتين؟

ربما لأننا كنا نؤمن بالدين وبالتاريخ طاقات هائلة، أو ربما كنا نتغافل فنرى الفرعون غير الفرعون، وربما لحرصنا الشديد على الأستاذين جعل لكل منهما في صدورنا أرضا وحدودا، فقط عندما كان الواحد منا يخلو إلى نفسه، كانت الحدود تنقع وتنشع، وتتصاعد الفقّاعات.

ساعة الغروب تماما ومن الغرب يعودون، لأقدامهم المجرجرة صليل السلاسل، فلول جيش منهزم. في جنازتهم يسيرون.

في أيام التحاريق[53]، في برد العجوزة[54] يأتون، هم الشمَلتية من عمال التراحيل، يأتونني بالتحديد. في موعد لا يخطئ من كل عام.

يقيمون في النيل، سدا طينيا هائلا، يجمع شمل طلائع الفيضان. من اللحم الحي للأرض الزراعية يقتطعون، ويلقون في عرض النيل.

في أيام التحاريق تمد القضبان. من الأرض المنذورة عروسا للنيل إلى الموقع الجديد للسد. عربة لكل شملتي يملأ صندوقها الصاجي. الكيلو مترات يدفعها برجليه المزروعتين في الأرض، والأرض ترتفع أمامهم دائما إلى النيل العالي، من طول ما أخذوا منها له.. لا تنخفض أمامهم للسخرية السوداء، إلا في العودة، والعربة في خف الريشة.

والحِمل بأربعة مليمات، لم تزد العمر كله، وبين دعائم الخشب يقلبها في الماء، لا غش في إنتاج ولا قفز على أكتاف، ولا سبق لقوي على ضعيف.

فقط العربات المحملة على قضيب تمشي بالدفع، والفارغة على قضيب تجري بالاندفاع، والعربة لا تقفز فوق عربة، بالدور. والصنديد كالرعديد، والمفتول كالمهزول.

في الموعد الذي يحدده الفيضان الجديد، وفي احتفال مهيب، يفتحون للماء ثغرة، مجرد فتحة، في دقائق يطيح الماء المتزاحم بكتلة بعد كتلة، وفي سيل عرم ينتهي كل شيء، ولا يبقى إلا الفيضان نفسه يجرف في دوامات إلى البحر.

***

الطواويس تلك الأرض الطاووس، كانت على الأرضين كلها مشرفة، وجاء السد الترابي فنتف منها عرفها وريشها، وأكل إشرافها ودِلَّها على الأفاق حولها، أكل منها مرتين: السموق كله والتيه، بكل ما كان يحمل يومها من ورق للبرسيم ثلاثي أخضر رقراق.. والثانية بالعمق الذي يأكل به من كل الأرض التي كانت في يوم ما سفحا لها، حتى تساوت عائشة بعيوشة.

كم يأكل الفيضان النهم كل عام.. من حر ما ادخرته الأرض قرب بشرتها منذ آلاف السنين.

***

القاعة الضخمة التي تتوسطني، قاعة حميدة الأرملة، تؤجرها لهم كل عام بريال في الشهر.

في هذا الجُحر الكبير يأوون جماعة، في الركن القصيّ المظلم يحطون الكريك والفئوس. النار الموقدة دائما تتوسط المكان، كالطيف يتسلل الواحد بعد الآخر إلى دكان الحاج سيد، يشترون غَموس البِتاو[(55)] الذي جلبوه معهم، ولا غموس لهم إلا العسل، مع المش والبصل، لا طعام لهم غيره، ولما لم تكن معهم آنية، تفتق لؤم الحاج سيد عن أن يبيعهم العسل في قراطيس، كل واحد بقرطاسه، والأكل عندهم بالطبع منفرد.

وتفتق جيب الشملتي بعد أن يأتي على ما في القرطاس من عسل بوجبة البتاو اليومية، أن يتحلى بالقرطاس الورقي نفسه، زلابية شهية.

ومن أجل الشاي يتحلَّقون حول النار، وحيث يجلس كل يسلم جنبه للأرض التراب متلاصقين، لعل في الأبدان أرماقا تتدافأ.

ليست لهم رغبات، ولم تنب منهم نزوات.

يعملون بأربعة قروش في اليوم، ينفقون ستين فضة، وبالمائة فضة الباقية يعودون إلى نسائهم المنتظرات، وبقية العام برابير جافة في عرض نداء.

***

ظلال. منومون. لا حس. لا يتحدثون أبدا، والحديث جهد، لا ذرة من فائض طاقة بعد الأحمال العشرة أم أربعة مليمات. أبدا لا يخرجون عن الشريط.

لا ينفِّعون من القرية إلا الحاج سيد هندام في عسله، وحميدة الأرملة في قروش قاعتها، أما مشهم والبصل، فمع بتاوهم يأتي.

ستة أشهر في العام، مائة وعشرون قرشا، هي كل ما تعرفه حميدة من عملة في العام، إلى جانب انتدابها خبازة أحيانا بالرغيف. حميدة الشملتية.

فقط رائحتهم الخاصة جدا، بعد رحيلهم بكل رحيل، يخلفونها. رائحة الحلبة التي يعجن بها بتاوهم، في نشع خلاصة عرقهم، وقد ذهب به الشقاء المتواصل، «روح» عرقهم القوي النادر، منذ كانت أجسادهم لا تعرف الماء.

الرائحة التي تهواها وتهوِي إليها أسراب البراغيث، وقطعان القمل.

**وفي نهاية العمل بالسد في قلب الصيف، لا يتغير منهم شيء. الشتاء القارس كالصيف الجهنمي. الرداء القصير لا يزيد أو ينقص. والنار هي النار، والنوم حول محرابها هو النوم.**

**النار التي تظل طول الليل موقدة، لعل طقطقتها ولسعها، تغنيهم عن طقطقتهم قملهم، ولسع براغيثهم.**

---

(47) جمع مِطرحة الخبيز، رمز اللسان.
(48) الدنون بلغة القرية مع حفظ المقامات، هو بربور الصغير كلما أطل من أنفه نشفه، أي شهقه ليعيده بلغة محب، وكأنما قد نشف.
(49) أي كف بصره.
(50) من يتغنى بالقرآن في المحافل.
(51) تقصد قانون الإسكان.
(52) أي جهزيه بمتاع بيته، وهي الفصحى أيضا.
(53) شتاء حين تنحسر مياه النيل.
(54) هي الأيام الثمانية الأولى من شهر أمشير القبطي، والعجائز أكثر تأثرا بها.
(55) رغيف مرحرح واسع جدا وهش، تضاف الذرة إلى قمحه لتقطع عرقه، فلا يعلو ولا يشغل حيزا، بعض المحافظات تستبدل بالقمح وعرقه البامية الجافة مع الذرة، وبعضها تضيف الحلبة.

# مســـــك الختـــام

في الضحى يدخلني حمار أعجف، يكُب هو وصاحبه الأعجف على خطوة، وينعسان على أخرى، ولهما رائحة الزفارة المجففة.

لا يكادان يصلان إلى ميدان القهوة حتى يصحوَا معا. يترجل، وبالرسن يسحبه إلى داخل مصارين الكفر، يعرف قصده بالضبط.

في زقاق مقفل يتوقف، وعلى أقصى شباك إلى اليمين ينقر بعصاه، وينادي:

ـ خلت[56] حُسنة.. بعودة.. البطيخ اتحرك في بزره.

لا يزيد عليها.

تخرج إليه خالة حسنة وهي تجر مقطفا مترعا..

ـ والله في معادك وجيت يا عم نعناعة. حساباتي ما تخبيش. هي الطورة حصلت كام السنادي؟ اوع تقول زي عام نوِّل[57]؟

ـ وإيه اللي حيغير السعر؟

ـ البطيخ كل ماده بيشم نفَسه، والصنف أصبح النهاردة شاحح. هو عاد حد يا حسرة بيعملها بره بيته؟ كل بيت دلوقتي بكنيفه[58] والبضاعة لما تشح يا عم نعناعة، تقوم تغلا.. قولتك إيه يا سيد العارفين؟

وخالة حسنة تقضي نهارها تعُس الحواري، والفرخة عدوتها اللدود، لأنها كالوطواط للجميزة، والغراب للبلحة، وهي تعرف فراخ البلد على داير فرخة، وكلما رأت فرخة سائبة، زعقت بصاحبتها منذرة:

ـ يا أم ملح، عضي قلبي، ولا تعضي رغيفي.

وكلما مرت بصبي يجلس القرفصاء إلى حائط، دعت له بالبركة والستر، ثم قالت موصية:

ـ ما تبقاش يا سندي تعملها بعيد، قرب من خالتك حسنة، ينوبك فيها ثواب يا نور عيني.

وقامت حوله ديدبانا شرسا، ومن كل حين تخاطبه.

ـ على أقل من مهلك يا حبيبي، خد راحتك يا عمري، هات آخر ما في عزمك وعزم أمك وأبوك، ما تخليش، نضف دي النضافة من الإيمان يا حبة عيني.

ومن مزبلته المكسوة بالخيش الذي سدت مسامه، يلقي عم نعناعة ما تعد له خالة حسنة، حتى تستكفي المزبلة.

وأخيرا تلقي إليه بأربعة فوق البيعة، قائلة:

ـ وادي طورة، ملو العين الفارغة.

وبشخطة قال:

ـ حطي كمان واحد.

وبزعقة قالت:

ـ والنبي ولا قمطة.

قهوة يوسف، ومزاريب السماء تصب قِرَب الشتاء، وعم يونس الفلاح يجلس وعيناه وأذناه مقرونة إلى خارج الباب الزجاجي يتطلع. ينادي القهوجي: شوف كده يا ابني فيه حد بينده لي؟

يفتح القهوجي الباب الزجاجي ويتطلع، الطريق خاو تماما إلا من سيول المطر المنهمر، أبدا يا عم يونس.

وعم يونس تزداد عينه وأذنه توترا. نادى القهوجي وهو مستغرق في النظر إلى الخارج: أنا سامع حد بينده لي. بص كده شوف يا ابني.

يفتح القهوجي الباب ويطل: والله يا عم يونس ما في أي حد خالص.

وعم يونس تزداد أوتاره السمعية والبصرية توترا، بينما هو لا يجلس على أبعاضه.

ينهض ويتجه إلى الباب. يفتحه ويخرج، وبالعمود الذي يحمل عريش الباب يمسك.

تتهاوى يده ويسقط.

لقد خرج يلبي نداءه الخاص، الذي لم تسمعه إلا أذنه هو.

# محبیـــات «۲»

(56) تنطق هكذا (خَلْتْ) أي خالة.
(57) أي عام أول، أي العام الماضي.
(58) دورة مياهه.

# المفتـاح الضائـع (تمهيد)

ديك البرابر[(59)] من حبه للفجر، الذي يطلقه من سجن الليل، قبل أن ينام، يودع طرف حبله الصوتي أمانة بيد الفجر، حتى إذا أطل، شده منه، فهب الديك من فوره يصيح.

وديوك برابر محب تسعة تؤذن للفجر، وديك آل سعد يطلق أول صيحة، لأن بيته في أقصى الشرق وعلى ربوة، أي أقرب نقطة من محب إلى الشمس أم الفجر.

وغلام يحرك رأسه، عصب السمع عنده أودعه هو الآخر قبل أن ينام حناجر الديكة التسعة.

تتصايح الديوك كل في دركه، الواحد بعد الآخر، وكل ديك يشد خيطا ليوقظ في رأس الغلام حارة، وبصياح الديك التاسع والأخير، وهو ديكهم، لأن بيتهم في أقصى الغرب، يكون قد صحا تماما، وهو يفكر في هذا الديك المسحراتي، صاحب أضبط ساعة بيولوجية حية ومتحركة على الأرض، نظرا لاتصالها الوثيق بنبض الشمس، أم الزمن.

وقبل أن ينهض، يطل برأسه ليحدد الوضع، إن كان فجر الجمعة، استسلم لسريره ثانية، لأنها الساعة التي يستحم فيها كل الكبار. ولا أدري لم يسمونها في محب ليلة الرفسة؟

ينسلت من فراشه متحاشيا خرفشة الحصير، وتحت إبطه مداسه.

وكل سحَر تأتي عليه لحظة يكره فيها «الصوت» كره العمى، هي زنقته مع الترابيس والأبواب، خشية أن تفضحه فيقع في المحظورين الصارمين: العقاب والرقابة.

الترباس الذي لا يحلو له أن يصطك ويجهر إلا في هذه الساعة، بالرغم من موالاته نهارا بلحسات الزيت خلسة.

وبعد أن تطمئن سُقَّاطة الباب في منامة مجراها، ينتعل مداسه ويمضي إلى الغيطان.

يلمح نواة بلح ملقاة، يلتقطها، ويقلبها. النخلة بكل طولها وأحمال بلحها، وجمار قلبها الأبيض، وأوراد خوصها مع الريح والطير الذي يأنس إليها، كم يود أن يرى طلعة هذا المارد

**المحبوس في قمقم النواة.**

**اختار مكانا لائقا، وغرس فجر النخلة.**

---

(59) البِربرة: الأنثى من الدجاج في أول عهدها بالبيض.

# نـــدى

الجلاجل الصغيرة في أعناق المعيز ولآلئ الندى.

القطرة الطفلة تتطرطر فوق قمة الورقة الإبرية المتجهة إلى السماء تتطلع، وقطرة كبرت وتحلقت حول الشوكة كالخاتم، والحلقة تكبر تهبط تستدير تستطيل، ومن عنقها تتشبث تتأرجح تتصايح تولول وتجأر.

سمع الغلام القطرة الصغيرة المنتشية فوق إبرة، تقول لأختها المشنوقة من شوكة: لماذا تحملين الهم؟ أأنت الثور الذي يحمل الأرض على قرن؟

قالت المشنوقة: ألا ترين المصير؟

قالت الصغيرة العفريتة: أراه جيدا، عما قريب ترسل الشمس شعاعها، فنتعلق به ونصعد، وفي الفضاء الحر نتنادى ونتجمع في سحاب، تدفعنا الريح وتهدهد، بلد تشيلنا وبلد تحطنا، إلى أن نسقط في مكان ما، مطرا أو ندى أو بردا، ربك يسهل. ألا تعجبك هذه السياحة الفضائية الغالية؟ تجدد شبابك وصفاءك وألقك؟ أنا شخصيا مزقططة أتعجل الرحيل.

قالت المتدلية بأسى: أما أنا فرحلتي إلى الموت والفناء في الأرض، انظري إلى تحت، سأسقط إلى هذه الأفواه الفاغرة تبتلعني وأفنى.

أسرعت الصغيرة بصوتها المسرسع، آه يا عبيطة، تفنين؟! ألم تسمعي يا أم جهل عن القانون الكوني القائل: «المادة لا تفنى ولا تستحدث»؟ لا ذرة بالزيادة، ولا ذرة بالنقص، كل ما هنالك أن رحلتك سوف تكون تحت بدل فوق.

قالت المشنوقة وهي تنشج: إذن سوف أفقد اعتباري وعنصري.

قالت عجوزة خيبر: يا بختك، هذه هي الرحلة الباطنية الصوفية العظمى، يموت الحي ويظهر في تفاحة أو عصفور أو جحش أو قطة أو قنفذ، أليست هي الأعمق يا عبيطة؟ هل فقدت روح المغامرة والاستطلاع؟ فكيها يا شيخة. النبي تبسـ...

لم تكمل، لأن المشنوقة سقطت وتلقفتها الأفواه، أفواه التربة المتراصة المترصدة، وللقطرة صدى وهي تبل الصدى.

**تمسح التربة أفواهها بأكمامها، ثم تندار تفتل شواربها.**
**ولم يغادر الفتى معزوفة الندى إلا بعد أن سمع التربة تتجشأ، تتفتح فيها أعين القطاط من جديد.**

# طابور المدرعات

أرض البرسيم والحلزون الذي يرفع بيته القوقعة في الفضاء، وبزاوية ٥٤ درجة، ويبدو أنه الوضع الاقتصادي الأمثل، يحمل بيته كظله ويسعى.

أصوات الجنازير تهدر وهي تدرج في طوابير، مخلفة خطا من الأسفلت الأبيض اللزج، لذا كان اسم الشهرة الذي عرف به «البزّاق».

وحين تهبط منحدَرا، يخفت صوتها، والراجح أنها توقف المحرك، وعند الصعود يعلو الصوت ويصخَب، والسُّبحة الملضومة في علوها وسفولها ثم علوها، فيلق خارج إلى طابور المدرعات الصباحي.

الحلزون التي تصنع بيتها من ذوب فؤادها، بنموذج هندسي واحد، لا يتغير إلا في البصمة.

وتتوافد صائدات الدبابات، البنات بصحونهن الصاج المقشرة، وغطيان حللهن المجنزرة[(60)]، إلى جسور ترابيع البرسيم من أجل الصيد.

حتى الحلزون؟!

حينما تفاجأ الطوابير بالخطر الداهم، تختلج الصفوف، تزعق المؤخرة: «التتار التتار. التتار قادمون». أما المقدمة فتجأر: «يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف».

في سرعة تتم حركة انتشار، تلقي بنفسها بين سيقان البرسيم وأقدامه المتزاحمة، وتحت أوراقه الساترة، تتدحرج وتختفي.

أما من فاجأه قضاه وقدره، وهو في وسط الجسر ولم يلحق، فهو الأسرع إلى إنزال القواقع الدروع، والتحصن داخلها، وقبل أن تلامس الأرض، بالضبة والمفتاح توصد البوابات، وقد تحولت إلى حصى تدحرجه الريح.

**في لمحة يتحول المعسكر الصاخب إلى جبانة تصفر فيها الريح، ربما لأنه خطر الموت، أو التنظيم الإداري المحكم، وربما الأخلاقي أو الديني. من يعلم؟!**

**تقشها البنات قشا، لتعود كل صبية بوليمة حية شهية لبطها، أو تبيعه لبط الموسرين.**

**كل فجر وأمام حبة عينه، تدور رحى هذه المذبحة لصديقه الحلزون.**

---

(60) الجنزار: صدأ النحاس.

# فقاقيع الشبارة

يطل السمك من سطح مائة الرجراج، يستقبل النور والضياء، وعلى رائحته التي لا يخطئها عمرَه، يأتي قط بات ليلته جائعا، بحذر شديد يتقدم متحفزا، من أين أتى؟ من تحت طقاطيق الأرض.

الشبارة[(61)] على بشرة الماء توقف فمها، شفتها العليا تشرخ البشرة إلى عالمنا الهوائي، وتشرب كمن يشرب منا من رقراق[(62)] الحنفية، وقد قلب رأسه وأسلم لها فمه.

الشبارة تفتح فمها وتقفله بين الماء والهواء، لتقضم الماء المغمس بالهواء والضياء.

وهواء التنفس لدى الغلام يتوقف، ليلتقط الفقّاعات التي تستحدثها السمكة، والبقللة التي تتولد وتتصاعد وتنفجر.

ويمر عم محمد النشار نجار السواقي في عيادته الأسبوعية لسواقي الشطوط، بعدته في زمبيل وراء ظهره، والمنشار في اليد الأخرى يتطوح.

لقد أطاح الرجل الطيب، بكل هذا العالم المرهف.

فص ملح ذاب.

---

(61) هي البلطية بلغة بحيرة المنزلة.
(62) رقروق بلغة محب.

# الطائرة الشراعية

إلى أقرب دَرَوَة يخطو الغلام، البهائم تجتر تحت أشجار التوت، في الركن القصيِّ الدريس والتبن وقش الرز.

وفراشات صفراء متأنية تحوم ـ طائرات شراعية نشلت منها الفكرة والنموذج ـ تناور وتناور لتحط.

يفرغ الغلام لها حياته، وينسى نفسه، حتى يمسكها.

وفي آخر ذيلها، في دُبُرها، يغرز عودا من قش الرز أو التين، تستطيل به الطائرة الشراعية الأصل.

يطلقها ويظل يرصدها وهي تعيد ضبط أجهزتها، حسب ما استجد من موازين ومقاييس.

وأقصى متع الفتى، أن يراها وهي تعافر من أجل إعادة الاتزان إلى حياتها.

# قشـــة البعـــير

في رابعة النهار، يقابل الفتى خاله الأثير إليه، ويحكي له عن رحلة الفجر، فينكر عليه حديث الندى والحلزون، لأنها حشر وطبيعة صامتة لا تنطق، وإن نطقت فأين وقف على لغتها؟

قال الفتى: كم أحبها وأعاشرها وأتأملها وأنصت لها. إذن، ما الغرابة في أن تبادلني شعوري وتسلمني لسانها؟!

قال له خاله: جميل جدا، طب والفراشة يا حلو؟ لِمَ لم يفتح الله على فراشتك المسكينة ـ وأنت تحطم بقشتك أمعاءها ـ بصيحة تصيحها في وجهك؟ لِمَ لم تسمع صراخها واستغاثتها؟!

قال الغلام متلعثما، وقد انزرد وجهه: لا. لا أعرف. لا أعرف.

قال له خاله: بل أنا العارف ـ لو كان شعرك عن عشق الطبيعة صادقا، وهو بالفعل الصادق، فأنت يا صاحبي منذ أن مددت يدك بالقشة إلى ذيل الفراشة الرقيقة تعبث بمصارينها، ضاع منك مفتاح قلبها ولسانها، ولم تعد أذنك قادرة على أن تلتقط منها شيئا. الحلو يا ابن أخت لا يكمل. ما رأيك؟

وطأطأ الغلام رأسه، ولم ينبس.

# أبو فصـــادة

(١)

جربا يوما أن تكون لهما ورشة نجارة بالقرية، يديرها «هو»، ومعـــرض بالمدينـــة المجـــاورة على البحـــر، يديـــره أخوه الأصغر القيافة.

في الشتاء لا يزيد على أن يرتدي فوق جلبابه الأبيض جاكتة، تعوَّد أن يلقي بقروشه في جيبها الخارجي.

يدخل الورشة، فيخلع الجاكتة، ويسلمها إلى المسمار خلف بنكه، الذي يحل فيه ما يعرض للورشة من عقد.

واكتشف أن قروشه تنقص كل يوم قرشا، مما يبعث على الظن أن يد صغير طويلة، تندس في غفلة.

يد من فيهم؟ وهو لا يحب أن يظلم أحدا أو يتهم.

وكفأ على الخبر ماجورا.

وتفتق ذهنه عن إلقاء بعض «الألالينا» الحمراء في جيبه بين القروش، وهي من مواد اللون المجنونة عند الأسطرجي.

وبعد انتهاء اليوم، ومن بعيد، وقف يرقب الصبية وهم يشطفون أيديهم، إلى أن رأى يد اللص الصغير تصبغ الماء.

واكتفى بقرصة أذن.

(٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة لقمان ١٣ - ١٥]

**بخشوع يقرأها مترنما، غائصا إلى اللؤلؤة من الصدفة، يحلي بها صدور الكلمات، حتى إذا ما وصل إلى..**

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [سورة لقمان ١٦ - ١٩].

**بكى وأبكى المصلين من خلفه، لا يستثنى منهم أحدا.**

**هي الآيات الأثيرة، يتلوها دون غيرها كلما أم الناس في صلاة، إذا غاب أخوه كبير مشايخ السنة، حتى إن أحد الأنصار ـ وكان مسحوبا من لسانه ـ عاتبه يوما: هل قرآنك ليس فيه غير لقمان نبيا؟**

**(٣)**

**باب الدار والسلم حرمهما على نفسه، إلا عندما يصحبه ضيف بينهما كلفة. السلم والباب للنزول والخروج، أما كيف يصعد، فبحبل متدل من شباك الرواق العريض، يصعد بيديه وحدهما، لا يستعمل رجليه مع الحيل أبدا.**

**لقد اقتنى يوما نسناسا.**

**(٤)**

**لم يرتدِ في حياته إلا الجلباب الأبيض، يحمِّله الجاكتة في الشتاء، ولم يحدث أن زرر سواري جلبابه قط.**

**وفي كل وقت فراغه ـ ووقته كله بين الصلوات فراغ ـ يقف إلى بنك الحديد، تأسيا بنبي الله داود، الذي ألان الله له الحديد، يؤلف للبيت العتيق، وللأحفاد من بيوت مبعثرة في القرية**

والمدينة، عصَّارات للقصب، وفتالات للشعرية، إلى براجل ترسم الدائرة والبيضاوي بكل ما يريد الراسم من أبعاد في عرض البيضاوي وطوله، وهذه هي العقدة، وبنادق صيد وقصَّافات تبغ ولفَّافات، وصنع لنفسه مع حديده مخرطة لا تستعصي عليها عاصية حديدية، ولم تتخط أعماله عتبة الهواية.

وبعد دقائق يكون ثوبه الأبيض «الشاهق»[(63)] ـ كما تقول محب ـ قد التقط كالمغناطيس بقع الزيت، وشظايا الحديد، والشرر الشارد.

فقط عينان زرقاوان، ترصدان تلوث الأبيض في ثوبه الناصع، بالترابي والفيراني المزيت بالأسود. هما عينا الأم العجوز، تشوح بيديها اللتين تغسلان. لا تزيد.

وهو غارق في ساعات التجلي، في زن وفي قراءة القطط. هو بالقطع أمام معضلة من حديد، فوق بنكه الذي يتوسط الحوش الكبير المسقوف نصفه، والمكشوف نصفه، ودوام اللخلخة يفتح العصيَّ العويص من الأبواب.

(٥)

أخوه الأصغر القيافة يتولى شئون الأرض والفلاحين، ويقوم بالصرف على البيت الكبير، ويمسك بكل الدفاتر والأسرار.

أما داود فلم يكن يحمل من النقود إلا اللمم، يعرفها ويرى الأيدي تتداولها.

وكلما خرج يعُسُّ الحياة، انغرزت قدماه أكثر وبلا قصد، في ملكوت الزهادة.

وجرته رجله المنحسرة إلى الجنينة الممتدة والمنطوية خلف البيت العتيق بساقيتها الحزينة، يطيل النظر إلى سكانها من نبت وطير وحشَر، حتى أدمنها.

واستهواه أبو فصادة.

لِمَ الطلوع والنزول، وحشر الكل في مكان واحد مقفل، وأرض الله واسعة؟

وشده أبو فصادة من حديده يتأمله ساعات لا يرمش.

صحا يوما في الفجر الأول، بفكرة كشك بسيط بأقصى الجنينة، وحده مع الصيف والشتاء والنخل والنحل، والجوافة والقصب وشواشي كيزان الذرة، وأبي فصادة والقنفذ، والدواب المارة من خلف كشكه عبر «المنسر» الكبير الذي يسرق ماءه من نشع الغيطان.

صومعة من خشب نباتي، خارج حدود الطوب المطبوخ، على مرأى من عصارة القصب على باب الأمَّارية، تلك المقصورة التلقائية المضفورة من تعشيقات مربعات الغاب الكرومي الأبيض، المكسوٌّ بكيزان اللوف الطويلة وزهور شتى المتسلقات، حيث يستقبلون في الصيف الضيف السمين الأثير.

وقام إلى أدواته ينجر ويشق ويدق، لم يتوقف إلا حين أنهى مهمته في سحابة يوم، ونقل إليه سريره السفري وهِدمتيه.

وانتبذ صومعته، يرى فيها قلوب المخلوقات، قبل أن تجري سحنها وألسنتها بما يملى عليها خارجها.

ومن يومها والحبل المدلى من شباك الرواق سلم صعوده، التوى وانحسر عن الأيدي، وانطوى على نفسه.

وزاد زَنُّهُ إلى نفسه، وهو مع الناس، وزادت هِزَّةُ ساقه، وطال ارتخاء تندة عينه، ولم يعد يشرع عينيه إلى عينين كما كان يحب أن يشرع.

(٦)

لأول مرة يختلط الورق والقلم على بنكه مع الحديد.

قالت ورقة:

«وسمعت كلام عمنا أبي فصادة، وبنيت عشي معه بين أوراق الغاب العازفة وفسائل النخل، وتعمدت أن يطل الشباك الجرار على منسر[64] القراميط[65] الصعاليك، كأقلط ما يكون بيت على بحر، وعلى ساقية عنطوظة المسكونة ليلا بالعفاريت، لعلي أخاوي منهم أحدا، أو أطلب قربا.

هذا الرقص اللولبي الذي أخرجني، وتسميه القرية علق الغاب من طول ملازمته إياه. في بشائر الربيع ينط فجأة بين العيدان، تنشق عنه الأرض، وقد صحا فيه المهندس والفاعل معا في بؤرة واحدة، ليبني البيضاوي المبطن الساحر بين آباط الأوراق قريبا من الأرض.

قد يموت أبو فصادة أو لا يموت، لا يهم، المهم أن يحيا الطبيعة بالطول وبالعرض، والحياة التي أمامه وحدها، فقد ترك ما وراء الطبيعة للشملول النزيه الصخاب.

الشملول واضع طقوس العادات والأعراف الحادة والتقاليد، والمحرمات والمقدسات، التي تُجمِّد وتثقل وتقيد وتعرقل. بيديه هو يغزلها، وحول نفسه ينسجها مزهوا، شرنقة ثم زنزانة تزهق وتطارد، بكلب الصيد الشرس المدرب المعروف باسم الضمير، وتضيع الأعمار وتسقط الضحايا من أجل التحرر من قديم شاده هو ليقع في جديد، حريري فحديدي، وتحت أسماء ضخمة براقة ومعروفة.

أبو فصادة الفصيح عرف فولتها، فلم يَحِد ولم يغادر، بل عاشها بحذافيرها، ثم عاشها بلا قبل ولا بعد».

انتهى كلام الورقة، التي ألقى بها إلى حديده، داود الذي علم نفسه بعد مدرسة عمر الأولية، وزودها بكل ما وصل إليه. كان نحلة يعرف كيف يقع على الرحيق، دون إهدار جهد أو وقت.

والورقة لم تحمل عنه همه، بل زادت طينه بلة. والشيء الذي لم يقلع عنه، ربما لأنه «الشرنقة الحريرية»، صلاة الجماعة، إلا أنه لم يعد يقرأ مقالة لقمان لابنه وهو يعظه، أو يبكي ويبكي، فصوته فقد عذرية رنته وعفويتها.

لم يبق له غير الحديد، بقادر على إعادة التوازن، إلى إهاب هذا الشارد المتبتل، والصعلوك الملتزم، يعيده إلى عشه إلى جوار صديقه وصفيه وأستاذه أبي فصادة.

(٧)

ما كان حديثه إلى القلم ليختلف عن زَنِّه إلى النفس أو صخبه مع الحديد. قالت ورقة أخرى ملقاة..

«جئت أكحلها فأعميتها، أردت أن أختصر الخطى والإجراءات، فعملت عَمْلَة أذن جحا معه. ذهبت بالقصد والعنية إلى الأسطى أبي فصادة لأكون أقرب منه، فإذا بي أتوارد كالدماء إلى أردا المزابل. بدل أن أحل أراني أعقد. عود القصب المعقَّل إذا ترك عطشانا.

أبو فصادة ببساطة يبني عشه المفخرة المعمارية، لا من أجل العش في ذاته كما فعلت، ولكن من أجل أم فصادة وفصادة.

من أجل البقاء الفصادي.

ثم تهجره العائلة الفصادية، إلى مجهول لا يخرج عن الطبيعة، وخميرة الغريزة الحية فيها، تتزود منها من جديد، أو تتبدد بين أحضانها، لا يهم.

المهم أنه في الربيع الجديد يجتمع ذكر وأنثى على مشروع عش وذرية.

إذن البيت التحفة ليس من أجل البيت، والزواج ليس من أجل الزواج، والحياة ليست من أجل الحياة.

لا شيء في الحياة من أجل الشيء نفسه أبدا، وليس من الحياة الاستدراج للدخول في مثل هذه المعميات الدائرية العقيم.

«الحياة دقة، وصل على النبي».

انتهت ورقة داود الثانية إلى معشر الحديد.

(٨)

وقالت الورقة الثالثة، ويبدو أن حديده ظل أحمر ملتهبا.

«في طلائع الربيع، مع القش الطائر والريش والغصينات بمناقير العصافير واليمام، ومع الطين الطائر في أيدي الزنابير، مع الشقشقات والهديل والهدهدات الطائرة في فم الصباح.

مع النقط الخضراء التي تنبجس عنها بثور الأغصان والجذوع الجرداء، وصديقي الذي انشقت عنه الأرض فجأة ذات صباح.

معها جميعا ومنها فيها.. تناهى إلى سمعي نداء خفي نفاذ، ينتأ كالبرعم. من أحشاء الظلام يوشوش.

لم ألقِ له بالا، ولكنه يدق طبلة الأذن.

وخرجت إلى حكيمي أقتبس.

الدائب الذائب في عمله، المستغرق إلى شوشته، يا صفيِّي يا نجيِّي، ليس هنا بالمرة. الاندماج الصوفي الكلي، الذي يعتريني مع معضلات الحديد، وبين لقمان وابنه.

وقعت مع هذه الوحدة في شر أعمالي.

ومن دروة الجلادي إلى جواري، خار فحل[(66)]، ومن بعيد طلبت جاموسة.

لم أكن أعطيت النداء من قبل أذنا.

واكتشفت أنني تجاوزت الأربعين.

وجدت المهندس المقاول الفاعل لديه ما يستغرقه، ودائما يستغرقه ما بين يديه، لا أكثر ولا أقل، لا لحوسة ولا فلفصة، ولا معرفة لأنها النطفة الكامنة في منابت الحدس والتلقاء، والبوصلة التي تترجرج لتتجه.

لا شيء اسمه ملل أو ضجر، أو فتور أو عزوف. لا قلق ولا أرق. أن تحيا وحسب. أن تعيش ما تعرف. بل تعيش وحسب.

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

انتهت الورقة التي استبقاها الحديد.

داود ولا شك، ساخت منه روحه، إلى أبي فصادة الدهري.

(٩)

ودارت المراسيل والجوابات، حتى عثروا له على واحدة من أقصى الأرض، أبوها طيب ديِّن.

وبنى له أخوه الأصغر بيتا في طريق المدينة، على مرأى من محب، ومسمع من أذان صلواتها.

يومها وجد آلته مقشَّفة يعلوها الصدأ، لم تستعمل قط إلا ماسورة صرف.

وكانت هذه آخرة العشرة مع أبي فصادة الدهري.

(١٠)

لأول مرة في حياته تحس راحة يده بوجود المال خارجها، ويحس جيبه بالإحباط إزاء قيمة المال وسطوته، ولأول مرة يحس بوطأة الحياة الاجتماعية ودروبها المعقدة.

والحديد الذي هناك في البيت العتيق، على البنك وحوله، يعاقر الصدأ.. الحديد الأخرس الذي لا يلمع ويؤدي عملا إلا بين يديه نسيه.

كم فعل الزواج به، ومن أول يوم، كأنما سافر إلى بلد أجنبي راطن. اشتدت غربته أمام غرابة الحياة من حوله.

(١١)

في بداية الصيف أتى ابن أخت له في عطلة الجامعة، حاملا كتابا لفيلسوف ألماني، تصفحه داود وهو واقف، وما أسرع ما نقرت عينه الخبيرة قول البطل لنفسه، بعد أن فارق الشيخ الناسك في الغابة: «إنه لأمر مستغرب. ألَّما يسمع هذا الشيخ في غابِه أن الإله قد مات»؟!

هزت العبارة بصيلات شعره، ولم يخفف عنه قول هامش المترجم: «وسنرى أي إله يقول بموته، وأي إله يتجه هذا الفيلسوف إلى اكتشافه في سريرة الإنسان».

جاءته العبارة على الوجيعة.

وأدرك داود هوية ابن أخته. وأسرها في نفسه.

(١٢)

أصبح له مطبخ يومي، لا ينفضُّ حتى يُنصب. مطبخ يزلط المال زلطا.

وجد مرة صوته يطلب به المزيد من المال من أخيه، ولكن ما يفعل والصوت يهرب منه دائما؟ لو كان الخجل رجلا لقتلته.

في الأصيل هَدَتْه قدماه إلى مجلسه القديم من قهوة يوسف دون أن يعي، وجنح الحديث بالرغم إلى الحرب وويلات الأسعار، وتعذر استيراد عتاد النجار، والمنطقة كلها نجارون. طهق الخلق، وضجت البيوت، وطقطقت السقوف.

تذكر وليفه القديم ونجيه. تذكر داود حديده. خجل. كل هذه القطيعة؟!

كان الرضا كله حين تتحول قطعة الحديد الخردة إلى آلة تدار وتدير، آلة تتحرك بالطاقة، وما الآدمي نفسه إلا آلة تتحرك بالطاقة، وخَيَّة البيت المنصوب تضيق وتخنق.

مضى يا داود عصر الهواية وقرض الشعر والصرمحة والحبل والنسناس، إلى عصر النفقة الجارية والمسئولية.

قم فز وانصب بنك الحديد هنا في منور بيتك الجديد.. كم أنفقت على الحديد؟ واليوم أرنا كيف يقوم الحديد عنك بالنفقة إن كان حديدا.

ونصب بنكه، وإلى سوق النجارة وبلا خجل قديم، ذهب يرى ويسمع، مسمار التركيب القلاووظ والكستير المشط، والبقية، وليفاجئهم بالمكبس الذي يغني عن المسمار. وبعد يوم واحد خرج الإنتاج وبنصف الثمن.

أصبح المكان حس، والبيت من فوق عرف الاتزان والنكتة والمفارقة، واستمع الشارع إلى أطراف الضحكة.

(١٣)

إذا ضحكوا غنوا وتفلسفوا.

وإذا ضحكوا قالوا: اللهم اجعله خيرا.

هرش داود مؤخرة رأسه، حيث مرقد الحسابات.

قالت له نفسه الأمارة، وهي تستفرد به في الصلاة:

ـ ألا ترى معي يا عزيزي داود أن فرط التوازن يُفقد التوازن، التوازن، كأي فرط في الحياة؟

قال يقاطعها: يعني إيه؟

قالت متجاهلة إياه وفي تؤدة.

ـ ثم يدعو ويلح في طلب طرف جديد يُحدث التوازن، فيُخل به منذ كان عنصرا غريبا.

ـ وماذا تريدين إن شاء الله؟

ردت وهي تبوس يدها وشا وظهرا.

ـ أنا؟ أحمده تعالى جل شأنه على آلائه ونعمه.

وفي خشوع السجود الطويل الصامت، ومن غرفة الكرار في مؤخرة رأسه ـ والصلاة أعز مكان لإجراء الحسابات ـ خرج ما كان خافيا يزحف.. قالت:

ـ الإناء يا فالح تدشدش. الناموسة دخلت تجويف الدماغ. لا رجعة. لا فكاك.

ولما لم يرد، قالت متمادية:

ـ مشكلتك اليوم يا هذا، لا كيف تعود إلى ما كُنْتَه، بل كيف تنسحب مما أنت فيه. موقف الرياء العصيب، يتعذر اليوم عليك أن تتخلف عن صلاة الجماعة، ولا عن النيابة في الإمامة، مع الوضوء الذي لم يعد ذا بال، وهذا جزاؤك الأوفى.

وأفاق فجأة إلى صوت أخيه الشيخ، يرتل في القيام الثاني:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]

**(١٤)**

**وكل ليلة، بعد أن يُسْلِم جنبه للرقاد، يهرول في سماء محب عريانا ملطا كما ولدته أمه، وقدماه تمسان الأسطح، وعند رأس المئذنة يتلكأ، ونظرات العيون من تحتُ سهام مسددة.**

---

(63) من شهيق التنفس، أو شهوق الارتفاع، ويقال في غير محب «أبيض شاهي» من الاشتهاء.
(64) المنسر جماعة اللصوص: ويطلق على القناة الواسعة، لأنها تسرق ماءها من نشع الحقول.
(65) القرموط والشال سمك نهري شائك، ويعيش في الترع والقنوات، أسمر الجلد سميكه ولزجه، يسلخ عند الطهو.
(66) هو فحل الجاموس الذكر.

# زفـاف الملائكـــة

(١)

كانت تقول لبناتها وهي تحرضهن على حمل عشائه إليه في مقره بالجامع: اللي يودي الأكل دهو يا بنات، الملايكة حتزفه.

هو الشيخ حسن، أما اللقب، فواحد رسمي ولد به هو منسي، وآخر عوفي جرت به الألسنة هو ستت.

ولعل هذه الثنائية بشير أو نذير، الله وحده أعلم بما تحمل بذرته.

كان يسكن وحيدا حجرة بلا شباك، وباب يفتح على مؤخرة صحن الجامع العريق، وتدين بوجودها كله للميضة من خلفها، وتعود الصف الأخير من صلاة الجمعة أن يصل إلى بابه بالرغم من اتساع الصحن، فجامع النعمان ـ وهو اسمه ـ قديم عريق. قابل الرحالة الأشهر ابن بطوطة صاحبه النعمان، وتحدث معه في كتابه.

لم يكن شيخنا يكسب عيشا، لأنه لم يكن يملك كُتَّابا يحفظ فيه الصبية القرآن، والقرآن مع ضفر الخوص صنعة العميان في القرية، وبمحب أعميان آخران يديران كُتَّابها.

من أجل هذا عاش أعمانا في أعين القرية، ودأبت الأم قبيل العشاء في إغراء بناتها بذلك الزفاف الملائكي.

قال الراوي: أما أنا فكنت الحريص على الاستجابة، ولم تكن بالطبع بدافع الزفاف، وكأن الملائكة فرقة صداحة، بل لرصد مبلغ ما وصلت إليه صبغة جلباب الشيخ في عالم الألوان المغري، جلبابه الذي يتخذ من تراكمات البطع صبغة.

قال الراوي: وأرسلني أبي إلى الشيخ حسن منسي الحنبلي الحرفي المدقق، أحفظ على يديه القرآن، وكنت وحدي معه.

منذ الوهلة الأولى، اكتشفت أن كل آدمي نائم مشخر على كنز يجهله، معمل كامل لما عرفت بعد بالصوتيات، آيل للصدأ والفساد إن لم يبدأ التشغيل.

منذ بداية سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٣]، يستنفر الشيخ معمل الصوتيات فيك بأدواته كلها، يستنهضها ويعلنها بحالة الطوارئ القصوى، وكأنما قامت القيامة، فأنت في «أنزل» فوق تل الهمزة المضمومة، وفجأة فوق غنة النون، ومع شلال الزاي المكسورة تسقط فجأة، وقد فتحت فمك بالعرض مع ضغطك على أسنانك بحدة.

تضاريس صوتية تتدفق وتنحدر، وتربط في تشكيل صوتي محكم، وصادر عنك أنت فجأة لأول مرة في حياتك.

كل حرف له بيته الذي يخرج منه، من داخل الفم، في الحلق واللهاة، ثم اللسان والشفتين والأسنان بكل درجات دوران الفك، الحرف كائن مستقل له بصمة، والكلمة مجموع بصمات حروفها، والكلمة تدفع الكلمة في تشكيل الجملة، التي يتألب فيها أنغام المعنى الكلي.

إذن أصوات اللغة معزوفات، يخنقها اللحن والجهل والتنشيز والخروج عن المقام.

بالطبع لم يأت الاكتشاف بالملامح، بل توجهت البوصلة إليه حادة وحاسمة.

يقول الراوي: إلى أن وصل بنا الدرس إلى لغط بني إسرائيل الذي يملأ العصور، وذلك التيه الكلموتي حول أوصاف البقرة ولونها وملامحها التي يضربون بها الميت فيصحو.

إلى أن وصل بي الحفظ إلى قول اليهود: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٦٩]، يومها يستوقفني شيخنا وقد قلب الاستياء العظيم سحنته، ليردها إليَّ مقطعة هكذا: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

وأفتح عيني في سعة الفنجان على رسم المصحف، لأراني كما قرأت ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

وانحسرت أمام هذا الأعمى إلى عالم الصمت، مدركا بغموض، أن الاهتمام البالغ والعظيم والمفرط بالسطح البراني، يكون عادة من حساب المعنى الجواني، ويا خسارة الحلو الذي لا يكمل.

وحملتها إلى أبي، مصرا على ألا أعود إليه، وبالتالي أن أنأى عن طريق الأزهر.

(٢)

دائرة كبيرة يتقرفص في مركزها شيخنا ستت. يد عكازته بيده، وهي بعقبها من فوق كتفه تلقي بظلها الغليظ متعرجا بتضاريس ظهره، ومهتزا باهتزازة الشيخ التي تحدثها أذنه، وهي تنصت إلى دبة النملة داخل البيوت وفي الشوارع المفضية إلى هذا الميدان الذي تشرف عليه مئذنة النعمان.

كان يحب أن يتوسط هذا الميدان، أمام دكانة مطاوع، الذي يواصل القراءة من مصحفه العتيق، كساقية الرز لا يتوقف، من بعد صلاة الفجر إلى أذان العشاء، يسمعه كل من عبر المكان، فلا يلقي عليه السلام، حتى لا يقطع عليه قراءته. أما هو فلم يكن على الأرجح يواصل القراءة إلا لكيلا يسمع أصوات الخلق، ولم يكن يهمه أن يبيع القليل أو الكثير، ولكن الدكان كان له البيت والعمل والمحيا والممات.

في الصيف يلوذ شيخنا في مكانه الأثير بظل المئذنة، يزحف معه ويتزحزح، وكأنه جزء منها، وكان يدرك حدود هذا الظل تماما، حتى أن جزءا من ثوبه لو تعرض للشمس، أسرع يطويه ويضمه إلى ملكوت الظل.

وفي الشتاء يتقرفص على بعد شبر من حدود الظل، يتعمد أن يقيسه أول ما يجلس، ويحتفظ به بعدا فاصلا يحركه ويزحزحه، لا يقوم من هذا المقام الشمسي إلا إذا وصل به الزحف إلى حدود ظل الجامع نفسه، يظل في مكمنه يتضاءل وينضغط، حتى يفعصه الظلان من خلف ومن قدام. عندها فقط، حينما لا تبقى شعرة من ضوء، يقوم.

كان يولي أذنا لقرآن مطاوع، وصفحة وجهه شاشة تتقلص من مد مبتور، أو غنة لم تشبع، أو إدغام مخلخل. وأذنا للبيوت والشوارع، وقرون استشعاره تدور من حوله كأبي رياح.

(٣)

كنا نتجمع على ضفة الدائرة الضوئية التي يؤلف شيخنا مركزها، واحدا بعد واحد، وكنا الحريصين على ألا يقع ظل أحدنا عليه أو على مقربة منه.

وكلما وفد وافد جديد، وهو الحريص على ألا يحدث صوتا، اعتدل رأسه يواجه القادم، وازدادت أصابعه ضغطا على يد عكازته، حتى إذا ما اكتمل العقد، يكون الرأس قد اعتدل مع ميلان ناحية المئذنة في مواجهة ثلاثة أرباع الدائرة المحيطة. يد تقبض بقوة على ذيل الجلباب الملموم، والأخرى من حديد على يد العكازة.

وأذنه تتحرك بالنوايا في الصدور.

تثبت الصورة عند محيط الدائرة وفي المركز.

بحذر شديد يتحرك طرف عصا إلى أعلى، وبحذر أشد يتدلى من الطرف خيط تلقي به في الفضاء الرصاصة التي تغطس بالصنارة في الماء، كانت صنارة صيد.

وبسرعة فائقة، وقبل أن توصل قرون الاستشعار الرسالة، تمرق الصنارة في سماء الساحة منقضة على طاقية هذا القرموط الغليظ تصيدها.

ويهيج الوحش الأعمى، كالمقلاع ينقذف، والعكازة تصنع في كل المستويات دوائر تتسع كلما اكتملت، وأقدام الوحش تتحرك سبعات، ولا تلبث البيوت وهي تحس بهوجة الانتفاضة، أن تجمع بسرعة ولهوجة متعلقاتها، وتغلق عليها بابها الذي لا يعرف الانغلاق بنهار.

كان فحلا هائجا قطع السلب، وحصانا جامحا يشب ويرفس معا.

(٤)

كان الشيخ منسي، من طول ما كانت أجهزته الداخلية الدقيقة، تخرج منه وتوغل في الخروج للرصد والمراقبة، كانت لدى العودة تتلكأ مرات، وتتلكك مرة.

واعتادت بعدها أن تخرج منه متسربة أو متسحبة، ثم تعود دون أن تلحظ، ثم أصبح من حقها أن تخرج في الوقت الذي تحدده هي. أصبح لها إرادتها وتصرفها الشخصي.

وكلما دخل غرفته، قامت هي من الفور بإغلاق الباب رزعا عليهما، ولا يكاد يفعل حتى يسمع من بالجامع العتاب والنقاش والصياح، والطحن والضراب.

وكلما حمل إليه أحد طعاما، صاح فيه: يا عالم خلوا في عينكم نظر. أنا موش لوحدي. احنا قبيلة. زودوا العيار شوية. زودوا العيار يا هوه.

ثم لم تعد الغرفة تتسع. ضاقت فخرج بهم إلى الساحة. وبدل الكلام ـ والظاهر أن عفاريته التي تركبه، حرمته عليه، لأنه فضايح وجرس ـ انتهج نهجا آخر.

تبدأ الجلسة الخاصة جدا بالهمس، الذي تنقذف منه شظية من كلمة هنا وشظية هناك، وفجأة يتخشب ويرفع عصاه، وينهال على ظهره هو ضربا قاسيا مؤلما، دون أن تدمع عين، أو تفلت آهه.

من يومها والصبية يحدقون، وقد شلت صنانيرهم. انتقلوا من مواقع الأداء إلى دكك الفرجة.

(٥)

قال الراوي: وأنهيت إلى سمع الجامعة ـ وكان مرهفا أيام أن كنت بها طالبا ـ خبر الشيخ حسن منسي.

أفتى علم النفس بأنها الشيزوفرانيا، والانفصام الحاد إلى: «منسي وستت»، نجمت عن وحدة محكمة، وسفر وإيغال داخل مرافئ الذات، انغلاق محكم، فانفلاق تام أو انشطار.

إلا أن داود نجيّ الحديد ونجيَّ محب، خطف رجله وأطل في غرفة الشيخ، ووليمة الضرب بالخارج حافلة.

قال: إنه الأكلان يا مبارك، استفحل واستوطن.

(٦)

في أصيل يوم من شتاء قارس، أوقد الشيخ الضرير موقده، ونصب شايه، ويبدو وشياطينه أدرى، أن النار لضمت في عود من قش الرز الذي جلبه فراشا يدفئ على عادة القرية.

والراجح أن النار وصلت إلى عود، ومدت إلى عيدان حتى توهجت، وعينها على اللقمة الدهنية الغليظة. ولعله وقتها كان مستغرقا في حديث ناري مع شياطينه وهم من نار، فلم يحس بالنار، وهي تغادر جلبابه المزيت، إلى منابع الزيت والشحم منه.

وإلى الشارع من الجامع، اندفعت كتلة لهب كالشهاب، وفي مركز الساحة تماما، حيث كان يحلو له أن يتقرفص، ارتكزت بعد ذبذبة، كما تفعل الكرة قبل أن تستقر في الحفرة، ثم ارتمت خامدة.

# أبــو هبـــط

اليوم مات أبو هبط، توقف عن أن يظهر كلما خطر على البال، ودفنه أخوه الأصغر مع أبيه في مقبرته، وهو يعلم ما بينهما، ويعلم أكثر أن ما بينهما يستعصي على التصفية أو النسيان.

هل ألقى عليه السلام أول ما أدخله التربي عليه، وقد افترق عالماهما من سنين؟ لا أظن، لأن السلام في عرف الابن أبي هبط، على مبتدع يقدس الأولياء وكراماتهم، ويسعى إلى الصلاة في المساجد ذات الضرائح، على أمل أن يكون الولي وسيطه في حساب القبر، والشفيع في حساب يوم الحساب، وهو دس أنف فيما يخص الذات الوحدانية، وشرك واضح فاضح، يحرم معه السلام.

هما قطبان يتنافران: مبتدع يموت ويعيش في الخرافات، وسني لا يفعل إلا ما فعل الرسول بالحرف، حتى الصلاة بالنعال في المسجد إحياء لسنته، بلا زيادة ولو في وزن واحدة من آلاف الأحياء التي تقف متصعلكة على سن إبرة، لأنها ـ على حد قول الحديث ـ «بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، مع مهارة يحسدون عليها في قيادة إيقاع الحياة ذاتها والزمن، طبقا للنوتة التي أحكمتها الشريعة، وليس العكس، وإلا دخلنا في دائرة البدعة النارية.

المهم أن ما وراء هذه العقيدة من حياة عند أبي هبط، بين أبيه المبتدع الأعظم، وخاله السني المتفقه في علوم الحديث والقرآن، بحر لا ساحل له.

الخلاصة أن أبا هبط لم يلق أبدا على أبيه السلام، بل أولاه ظهره في غير مبالاته الشهيرة، مع هز كتف أو كتفين حسب الحالة.

والأب بالتأكيد لو افترضنا أنه تحدث معه في القبر، لناداه بـ«البغل» وكم ود في حياته لو يستبدل «البغل» باسمه في شهادة الميلاد، لولا تكاليف التجديد، ولولا أن أخاه الذي يصغره ـ والذي عليه الحمل كله في أمور المعاش ـ نبهه إلى أن التغيير يجعل منه هو البغل، وليس الابن. (البغل فلان الفلاني). لولا هذا ما أقلع ولو تكلف.

لا شك في أنه الصمت في هذه الزنزانة المطبقة عليهما إلى يوم يبعثان، والصمت صيام رهيب، وتعذيب لهما معا، العاطل بالباطل، في هذه الأبدية الدائرية اللانهائية المطبقة، مع غض الطرف عن القانون المعروف ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ولعل بصيص الأمل أن يخصم عذاب القبر بالصمت، من حساب يوم الحساب، إن كانت اللوائح تسمح.

بل لعل بصيص الأمل الأمثل، وأبو هبط بلا مبالاته القريب جدا من الاستهبال أحيانا، والاستعباط أحايين، لعله يقنع الملكين منكر ونكير، وهما يحاسبانه في القبر، ودفتر أعماله مسند إلى الـمِرزبَّة، أن كل ما ارتكب في حياته من تهور وشطط، وأتى من حماقات وآثام غليظة باستهبال، حتى إنها لتندرج تحت طائلة اللمم، كله مصدره والمسئول الأوحد عنه، هو هذا الأب القابع إلى جانبه، هو الذي دفعه غصبا وقسرا، بحكم حركة رد الفعل القسرية، وبشهادة حمل بعير من جريد النخل الأخضر، نسره عليه وهو نائم، وكأن عمتنا النخلة ـ والحديث النبوي يقول: «أكرموا عماتكم النخل» ـ لكأن عمتنا المسكينة، لم تكن ترضع فسائلها وتربيها إلا لحساب هذا العمل الوحشي، ويكفيها عذابا، أنها أول من يسمع جريرة ما يصنع جريد أولادها هي.

إذا تحمل الأب بالفعل المسئولية وحده، وهو ترميم جزئي جدا في جسم هذا الفساد المستشري، وحمل عن بغله بالفعل جزاء وفاقا، كل ما أسنده إليه بأعماله هو زورا، وما دس عليه في لوحه..

إن حدث، ربما يأتي دور بصيصه هو الآخر، إذ ربما كان على الأب بدوره بعد أن يحمل ما ارتكبت يداه، أن ينقب عن مسئوله هو، إلى أن تصل الرعية إلى الفاعل الأصلي، ليقر ويعترف بوسائله الجهنمية وأدوات تعذيبه، بالتجني على كل هذا الخلق جيلا بعد جيل، في هذه اللعبة البراقة جدا والقذرة، التي نصبت هنا وهناك.

ثمة خلل جوهري في النظام ذاته، والدلائل كلها تؤكد أن ما يسمى بالتطبيق هو الأسبق، وأن النظرية اجتهاد نظري خرج مما نطلق عليه بالتطبيق العملي، ولا أقوم كثيرا ما يخرم، بل لا بد أن يخرم.

بقيت الأم التي ذهبت إربا إربا بلا دية.

(١)

صراخ ملتاع هلع طويل، منتزع من قعور الأرجل، يشق قلب الليل، ليخلع القلوب من توابيت نومها.

تستيقظ البيوت وتضيء، وهي تلعن هذا الكابوس الليلي، الذي يحدثه وحش آدمي متحجر القلب، وأب.

والبيوت تتصايح، بيت يفضي إلى بيت، إلى أقصى الطرف القبلي، لتسرع إلى إيقاظ العمة، تلفع ملاءتها وتمضي قبل أن يفطس الولد بين يدي أخيها المستبد المستفرد بابنه كل ليلة، يفرج الخلق بعد منتصف الليل وباسم التربية.

هذا الجانب من محب يعلم أن هذه العمة النائية، هي المسموح لها وحدها بالشفاعة، تلك المحرمة على العم المقيم في الشقة الملاصقة لهذه المجزرة الليلية.

صار الكابوس الثقيل مشكلة هذا الجانب القبلي من محب.. وصار فيه الآباء كلما تحدثوا مع هذا الأب في هدأة النهار، يزداد ضراوة مع ابنه، الأمر الذي جعلهم يقلعون، وجعلهم أكثر رقة وحنانا في معاملة أبنائهم. أما الأمهات فقد تعودن أن يخوفن أبناءهن من بعيد، بالهلع الليلي الذي يحدثه هذا الأب، ربما لأنه عين من عيون أعيان محب، وخطيب مسجدها إن غاب الخطيب، وصانع كوابيس ليلها.

(٢)

إذا خطر على بالك تلقائيا من غير إرادة منك، وجدْتَه أمامك، «هابطا»[(67)] عليك في هيئة ضبابية لا تلبث أن تنقشع، لينفتح فمه بالورب من جهة اليمين، مع استدارة في حجم ذيل الجزرة قبيل أقصى الزاوية، ليميل الرأس إلى الشمال.

وإن جمعتكما طبلية طعام، فسوف تجذبك ملعقة رزه الملأى وهي تلقى داخل فمه المفتوح على مصراعيه، وأحيانا ما تسمع من مفاصل الفكين طقطقة، ومع الملعقة يرتفع رأسه كمن يشرب من قلة ماؤها ضحل، وهو يزر عينه، ثم تسمع للملعقة ارتطاما بالأسنان.

وعندما يزور الأسرة الأستاذ حمدي، قريبهم المسن، وراعيهم الحكيم الذي يعيش في القاهرة، يطلبه هو الابن الأكبر، ليطمئن على مستقبل الأسرة.

يتحدث معه، فيراه العاقل المتزن المتحدث على مهل، وهو يضرب برمادية عينه المشربة بالزرقة إلى السماء في لون عينه، ما لم تدخل قطة، وذيلها المتعالي المعقوف من طرفه، يتلاعب من فوقها كعصا الراقص.

ورغبة خارقة جارفة لا تقاوم، أن يمسك بيد تلك العصا، ويمسكها محكِما.

يجن جنونها، يرفعها يهزها بعنف، تخمش تخربش، يدوي صوتها، أنيابها مخالبها شواربها، لا قوة تثنيه.

عسله وسمه القط والثعبان.

ينسى الدنيا والحكيم وإحباطه، والحمص الذي اشتراه في حياته بكل مليم يصل إليه، منذ كان كما قالوا له، يصيب بالذكاء والحضور.

واعتاد بعدها الزوار من المدينة، أن يستدعوه ليروا مشهده مع القطاط.

وهذه هي بطاقة أبي هبط الشخصية.

(٣)

سهرة للصبح كل ليلة، عند إحدى أختيه الشقيقتين أو عنده هو بالتناوب، يشربون الشاي بالدار الصيني، وهم يكبون وينعسون، ليتشهد كل منهم كلما نبه. ينام اثنان معا أثناء حديث الثالث المعاد والمعاد، في أسطوانة معلقة ومشروخة إلى ما بعد منتصف الليل، ويتناوبون.

ثم نصف الساعة يتنادون للقيام، والمنادي ينقطم منه النداء منسحبا إلى النوم، ليلقف النداء من عليه الدور.

هذا التناوب الدقيق، فلا يصحو اثنان معا أبدا! أغلب الظن أنه وحده الجامع لهذه السهرات.

أما ثالثهما فهو الحاج سيد، زوج أختهما، البقال الذي يقوده حماره دائما وهو نائم لا يقع، لأنه طوَّع له وألان كل أوضاع النوم.

المهم أنهم يقومون، لأنه لا بد لهم أن يقوموا، وعن طريق الدكان يعودان بعد لفة، يختبر الأكبر بنفسه الأقفال بالشد، وبابي المخزن والسطح بالدفع مرات ومرات، ثم يمضيان.

والأصغر الحاني على عائلته الملمومة حوله، يصعد إلى شقته رأسا. أما هذا الذي أسندت إليه العناية مهمة التأديب والتشذيب، فأمامه طقوس وقرابين يؤديها، ومن غيرها لا يزوره النوم.

لا يصعد مع أخيه السلم المفضي إلى شقتيهما، بل يتجاوزه إلى داخل الدور الأرضي حيث الحياة اليومية، إلى باب الجنينة يشد ترباسه، ويخرج إلى نخلة بعينها، حولها فسائلها تضمها وترعاها كالفرخة وكتاكيتها.

من فسيلة ينتقي جريدة خضراء صماء مترعة، لتكون موجعة، ينزع عنها سُلّاءها وخوصها، في الهواء يلبلبها، وعن صوتها المكتوم يرضى عائدا.

إلى سرير ابنه الكبير، أول من امتلك عليه من سلطة حقه مطلقة، الابن الذي ارتكب ما لا يغتفر، أن جاء الأول من العنقود.

عنه يرفع الناموسية، يلفها جيدا ويبعدها تماما، ثم يتخذ وضعه في جثة ابنه النائم مع الملائكة.

يبسمل، دون أن يخطر على باله قط أن يكبر، ثم يتوكل ويرفع الجريدة وينزل، يرفع وينزل كيفما اتفق.

وبشغف من يقيم الحد.

تنزل الأولى، فينهض النائم الصغير بنصفه الأعلى متطلعا، تنزل الثانية، فينفتح فم كباب الفرن، ومن فوقه عينان بلون الدم، مستخبرا، وكل ضباب الفزع يتنادى يتجمع يتكثف بلا صوت. غائبا مخدرا لا يزال. تنزل الثالثة، فترتفع يد درعا لوجهه والرأس مستجيرا. والرابعة حنجرة لا تعي إلا مجهولا، تجأر. والخامسة والسادسة والسابعة، من قعور رجليه ينطلق الصوت سالكا يهز ضمير الليل.

(٤)

كان الجد يدلل ابنه، ويفرط في تدليله، كان لكلمته صدى مسموع، كما كانت تروي أخواته العمات.

مات أبوه وهو في الثامنة عشرة، ولم تكن قدمه قد تعفرت قط في مسالك حياة الناس، ولم تكن أذنه تسمع إلا صوته.

فجأة وجد نفسه مسئولا رسميا عن أختين شقيقتين أثيرتين، وأخريين فقيرتين لم يعطهما يوما ما في الحياة ريقا حلوا.

وأخ واحد يصغره، عرك الحياة، ومارس السوق، وتعامل مع الناس، فخرج عطوفا سليسا، وأفهم للناس والحياة. أخ أدار العجلة أضبط وأسرع مما كانت، فانطلقت العربة.

أخ هو شريكه الأبدي في التجارة والأرض والأخوات. عليه كل العمل والسفر والإنجاز، ولهذا الذي يركب رأسه، الشخط في أخيه بخاصة، والنظر والأمر والنهي، والاسم لطوبه والفعل

لأمشير.

ويوم يغيب الأصغر في مراكز الدقهلية، وراء تقاوي البرسيم والرز الشعير والغلة للأرض والتجارة، يصوم البيت الكبير، العائلتان بالأولاد، لا يأكلون إلا ما يجود به الدكان أو الفلاح أو أي مجان، فمن المتعذر على يده أن تخرج أو تعطي لم يكن في المجرى منذ احتفاره إلا تيار واحد لا يعرف إلا اتجاها واحدا، أن يأخذ.

لقد أكدت المسئولية المبكرة، فجاجة الذاتية، واتجاه النمو عنده.

(٥)

بالضحى تجتاز محبا زفة يتوسطها حمار، يركبه فتانا بالمقلوب، وقد حشى داخل زكيبة على اللحم، فتح فيها ثلاث فتحات للرأس والذراعين، والأطفال من حوله زائطون يزفون: بالعين.. يا الله السلامة، يا بو الريش.. إن شاء الله تعيش.

والزفة لأن أحدهم شكا إلى الأب أن ابنه المزفوف، كان يلعب الكرة الميس[68] مع أترابه، فكسرت الكرة الشراب زجاجا مكسورا يأمل أن يجدده، ولكن على من؟ ومحب تعلم أن الزفة ليست للتأديب، بقدر ما هي للزجاج المزعوم عوضا وترضية.

والزفة دائما تنتهي إليه، يحرص على أن يكون في انتظار عودتها، ليأخذ حقه هو، بعد حقهم: الفلكة[69] المعدة للقدمين، حتى ليتعذر الوقوف، ثم الوقوف الجبري لزوم الشلاليت والأقلام والقفوات، التي تملأ وتمعجن بالزغد والموشحات.

(٦)

لم يحتمل جسدها القوي ما يدور.

ماتت.

ماتت كمدا.

طقت ماتت.

أمه التي ذهبت فطيسا بلا دية.

يزعق طائرها فوق شواهد القبور، أن اسقونيي اسقوني.. ولا مِنْ سقَّا.

(٧)

كان المرحوم يتلكك للمرحوم، والبلاغات التي كانت تصل ضده، لم يكن يتحرى أحداثها، يا معجل ما يأخذ بالشبهة. ولما كان السوط نازلا لا يتوقف، بالحق وبالباطل، فقد أكل البغل له قلب ذيب، وأقدم على الهرب من الدكان محبسه اللعين، وأدمن الهرب.

يهرب إلى أترابه وكان يكبرهم، إلى حيث تلبي القدم نداء الأرض. ينضم لمجرد إثبات الاسم، ليتركهم فترة، ثم يعود وفي يده فأر سيسي أمسكه من سوسة قفاه، تفوح منه رائحة الجاز[70] الفاقعة، وهو الخبير الحاذق في معرفة مسالك الفيران وأوكارها، وفي سرعة صيدها، السيسي الصغير والثعبان، إلا أن السيسي يستهويه أكثر لفداحة ما يأتي من ألاعيب تخلع قلوب الكبار.

يعود بالسيسي وقد غمره بالجاز، من أين أتى بالجاز؟ لا أحد يدري، والكبريت باليد الأخرى.

ـ يا بو هبط حرام، يا ويلك من عذاب القبر، دي الـمِرزبَّة حتبططك عِجَّة، هو مين؟ لقد تربى على الغالي من مرازب أبيه.

يضرم في فأره النار ويطلقه، فيدخل من أقرب خرق يصادفه، إن كنا في الغيط، إلى خص أو حزمة حطب، وإن كنا في محب يدخل بيتا أو عشا، لا يهدأ له بال حتى يرى النار تندلع. حينئذ يسرعون بتنبيه الكبار، تخلصا من التهمة.

(٨)

وعتلة القسوة على طول المدى تحفر فيه وتقوض وتعربد، لم تدع بالداخل جدارا قائما، كل محتويات دماغه بقايا وأنقاض، ساحة واحدة اختلط فيها الحابل بالنابل، تتعايش فيها الأضداد بسلام وتلقائية واستعباط.

دخل المعهد الديني لأنه بالمجان، ثم دخل الجيش، وكان التجنيد للعائلات سبة ومهانة، لأنها تعجِز أو تبخل عن شراء الذات بعشرين جنيها.

واندفع إلى أنصار السنة المحمدية حيث أخواله عامدا، للغلو في الهرب من أبيه أعدى أعدائها، ومواجهته بالأنصار.

وأيام التهجير الكبير من البُلط[71] في غارات الألمان، أقدم بنشاط وموالاة على الأذان الشرعي في الجامع، والمئذنة تطل على سطح حبيبته المهجرة، ليبلغها صوته ورسالته، ويده تشير وهو يؤذن.

(٩)

بعد العودة من آخر زفة صباحية بالمقلوب على الحمار والهندام الزكيبة، بعد أن صارت الزفة تستهويه هو وترفه عنه، وفي مرحلة التشليت بالذات بعد العودة وفي حمياه، مد الفتى يده ـ من باب العبث وإثبات المهارة والقدرة ـ فلهف رجل أبيه الراكلة.

بيد من حديد أمسك بها، لأنها لحظة حياته كلها، وبعنف شدها إليه، فانهار الأب من طوله على الأرض.

تقوض وقد تحطمت الزلعة المقدسة.

كانت الفاصلة، إذ خرج الفتى بلا رجعة.

هج إلى الغيطان، مع الذئاب يبيت، في بير ساقية مع العفاريت، في أرض قصب أو ذرة مع الثعالب والجراء، أو ببيت آيل للسقوط مع الجوارح.

لم يعد يخاف أو يحجم، لأنه لم يعد يمتلك جهاز تفكير أو تقدير موقف أو حساب، وأنس إليه الوحش والطير، وانطلق على رِسله كالريح، يأكل مما تنبت الأرض.

(١٠)

أبوه يقسو فيشتد، وأبو أبيه يحنو فيشتد، وكلاهما لا فعل له، بل ردود أفعال مكتسبة، حتى إنك لو أردت لا، فعلت فعل نعم.

والأجيال تتعاقب، جيل ضحية جيل، بالقسوة مرة، وبالرأفة مرة، يقبُّ هذا ويغطس ذاك، ومن غرق غرق. وأب روحي لا بد أن يكون قرداتيا، يُغتال لو تعدى الهامش، والأصح أن يقال انتحر، ولا موطئ لعظة، لأن الطموح الأخرق لا يصدر إلا من زلعة فارغة، لها رنين لو نقرت، أو داعبت الريح مناخيرها العالي، المتورم من السباق ومن الشمم.

(67) لعل اسمه «آبو هبط». من هنا جاء.
(68) هو قالب الطوب القائم هدفا للكرة الشراب من الفريقين. وتسمى محب اللعبة «أول خراء».
(69) جريدة يربط من طرفيها حبل، يدخل إلى ساقي المعاقب، وتلف الجريدة حتى يحكم الحبل وثاق الساقين وتثبت القدمان في الوضع الأمثل للضرب.
(70) هو الكيروسين. والجاز هو الغاز.
(71) بور سعيد ولعلها من صدر اسمها الأجنبي (بوت سعيد) مع قلب الراء لاما لزوم شئون سقف الحنك.

# ظـُهرة الهبلة ومدام عزيزة الفرنساوية

(١)

من قلب محب تبدأ الزفة، يتوافد الصبية، من الحارات يتصايحون يتجمعون حول ظُهرة[72].

وعصافير الجنة كلما رأوها خارج حدودها، تنتظم صفوفهم حولها، إلى منشد ينادي بمقطع: «ظهرة الهبلة»، وبطانة ترد: «دقوا الطبلة». ما لم تبادر هي بالإنشاد، كلما أخرجها عن فلكها أمر، فيؤلفون لها بطانة مسرسعة، بهذا جرى العرف الصارم بينهما.

وظهرة، تأكل عيشها من مخارج الجاموس، والبقر.

في ركن ناء من ذيل جنينة السجان، وتحت شجرة زيتون فتية، كالصبارة في زاوية قائمة تقعد.

وإذا أخرجت بهيمة شيئا، في موضع من محيط يطوق زمام محب بالحواجز المائية القروية، انتفضت كمن أصابه مس، وانتفخ أنفها، وفزت على حَيلها، واعتلت حجرا أو كومة، ودارت بأنفها في دائرة.

وعند موقع الجاموسة، يتوقف دوران فنارها، لا تكمل. تنزل وتتجه كالمنومة، أنفها مرهف إلى إطلالة الجلة من مخرجها، تشده الموجات الصادرة من مخارج الجاموس والبقر.

أمام «البرطة العظيمة» تجثو. بقبضتها تحفن حفنة من تراب ناعم، سحبته الريح إلى جانب الطريق، تراب كالردة ترشه فوق شيئها، وبالقبضة الأخرى تفرك يديها.

وبمهارة ودُربة، تتلقى عظيمها فوق راحتيها وهي تبسمل. كحاملات القرابين تمضي، وظهرها ومن فوقه رأسها في سموق النخلة.

وفوق حافة جنينة السجان، المطلة على الماء من جميع جهاتها، والمعدة سلفا بقش الرز ونثير التراب، وفي الموقع الذي عليه الدور، تلقي بقربانها، وتبطط حتى يندلح قرصا مرموقا، ذا شفة

مبرومة أو مدببة حسب الرواح، وبين يدي الإله رع تودعه ليتولاه بحرارة رعايته، حتى يجف حلقه.

(٢)

كان حلم محب، أن تقف عزيزة الفرنساوية أمامها عند مرورها بها في الذهاب والإياب، إذ كان على كل من أراد أن يركبها، أن يطخّ لها مشوارا إلى قرية الشعرا البعيدة غربا، أو إلى دمياط شرقا حيث تبدأ.

كم بح زور محب، وجفت أختامها وأسارير بصماتها، في التماس هذا الوقوف من أولياء أمورها، دون جدوى.

وعزيزة الفرنساوية كما تسميها محب ـ مثلما تسمي الحمارة والماعز، وكل أنثى تلد وتنمي الثروة ـ هي الديزل أو القطار ذو سكة الحديد الضيقة، الملائم للزيق الضيق بين حافة الحقول والترعة الشرقاوية.

إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية، وشح الفحم، فنشطت محب بسليقتها إلى إنتاج الجلة، الوقود الذي تسميه وقيدا[(73)]، وهي طاقة تشغيل أفرانها، التي لم تكن تخمد أبدا، وتقتبس البيوت منها نارها.

أخيرا اضطر وقيد محب، عزيزة الفرنساوية نفسها، وبجلالة قدرها، وصاغرة، إلى أن تهدئ أمام محب وتقف.

ربما ما قبل الحرب كانت أيام عز الصفوة، تحس عزيزة، وهي ذات الجنسية الفرنسية، بالإهانة تلحقها إن هي وقفت لقرية مفعوصة كمحب.

الخلاصة أن مدام عزيزة، وقفت يومها أمام محب عند منزَل الترعة الشرقاوية وطال وقوفها لتمون ـ اسم الله على قيمتكم ـ الجلة.

تلك الطاقة العفية، التي تشغل أفران الموسرين وحدهم، لأن السواد كانوا يستعملون قش الغاب، أما حطب القطن، فلمن رقص على السلم، أو شاف نفسه في الساحة بين الموسر والمعسر، والمعول أقلها دخانا.

زاد الطلب على الجلة، وصار لها قيمة وسعر وكرامة، وشافت لها من نفسها يومين، حتى أطلقت عليها محب اسم «مسكة» اعترافا بفضلها وتنزيها.

أقراص الجلة التي كانت تستبدل بها أرغفة الخبز الخارج من نارها، أو تباع بالكوم، ثم بالعد، ولما شرفت عزيزة أبت إلا الوزن.

وقامت محب كلها إلى تربية الجواميس واقتنائها، والتعامل بها في أهدافها الجسام، كالمهور وشراء غابة أو قيراط، وحج أو وفاء نذر أو دين.

وبالطبع تعددت في محب مصانع الجلة وتوسعت، وصارت كل أرض فضاء أو خرابة تستأجر منشرا، وعملت كل البنات في صناعتها، وكل مصنع ابتكر له علامة تجارية تدمغ أقراصه.

وهكذا تم لمحب احتكار هذه الصناعة الثقيلة، على طول خط عزيزة من دمياط إلى المنصورة.

أمَلَة!

الجاموسة يومها ـ وبرطتها كانت مبروكة ـ في مقام بير بترول، ولم يكن يهون على محب التي ذاقت الكسب، أن تذبح منها روحا، حرام أن تذبح الفرخة التي تبيض المسكة.

(٣)

وانطفأت الحرب العالمية، وذهبت زنقة الفحم، ولم تذهب خالة عزيزة، فقد أدمنت الجلة، ولم تقلع عنها أبدا أفرانها ورفاساتها، ولكن الحرب غيرت الدنيا، وانفتحت الأسواق فجأة على الجديد، وتفتحت العيون.

واستيقظ الناس يوما، فوجدوا أرجلهم طالت، وخطاهم اتسعت، ونظروا إلى نينة عزيزة، فوجدوا سكتها ضاقت، وطرحتها تخرقت، وسوادها لحسته الشمس، وألفوا الممرات بين مقاعدها لا تتسع لركبهم. عزيزة أصبحت شخشيخة مخلعة.

وعرف الناس أنواع السيارات وخطوطها، وتزاحمت في البر الآخر للترعة الشرقاوية من عزيزة، التي لم تعد العين تراها إلا في النقل الخسيس، أصبحت صنوا لحمار التتريب، وأخذت تذوي وصحتها تتدهور، حتى وافاها أجلها ذات يوم، دون أن يحس بها أحد، وكذا حال الدنيا.

وجرَّت وراءها الجلة، وبير البترول بالتبعية، ومحبا التي أقعت في ركن فوق شَلْق[(74)] من القش، تجتر أيام عزها، في نواح أشبه بنداء مالك الحزين في محطات هادئة مترقبة من الليل، وما أشبه محب بعد زوال عصر المسكة بمصر المملوكية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ولا أحد يحب النكد وإن تجمعنا على سيرته.

أما ظهرة التي أدخلتها مسكتها تاريخ محب، فما أسرع ما أعادتها جلتها إلى صبارة تحت زيتونة من جنينة السجان، لا يخرجها إلا برطة من جاموسة، أو سوءة من بهيمة آدمية.

كأنما كانت ظهرة تخطف رجلها في مشوار قصير كلفت به.

(٤)

اكتمل عقد الصبية حول ظهرة، في زفة تخترق القرية والكفر.

ظهرة: سي التابعي إدَّاني حتة بقرشين، وقال لي: أوعي تقولي، أقول؟ أقول إزاي؟!

الصغار: وأنا مالي يا ختي، كسَّرها كسرها[75].

ظهرة: شفته تحت الزتونة، في جنينة السجان، نايم...

الصغار مكملين: فوق حبيبة القشلانة.

ظهرة: وادَّاني..

الصغار: حتة بقرشين.

ظهرة: وقال لي: أوعي تقولي! أقول؟ أقول إزاي؟

الصغار: ونا مالي يا ختي، كسرها كسرها.

والزفة تمر بالسامر في القهوة، وفي أعقابها على طبالي العشاء يلوكونها كالعجانة حتى تخمر بالزهو والغيرة، من خلف قناع الغضب والتشفي.

ومن المؤكد إن لم يكن المسكين سي التابعي، قد منح ظهرة حتة بقرشين ثمن سكوتها، ما خرجت أبدا بالزفة، ولا نقبت أصلا صمتها هي. ومن المؤكد أيضا أنها رأته كثيرا قبلها ولم تبح، فظهرة لم تجرب أن تحصل على مال دون عمل، لم يحدث لها قط، والسكوت في عرفها ليس عملا، فما البال بحتة بقرشين كاملة، قطعة فضية دفعة واحدة؟!

---

(72) بضم الظاء وكسرها أي المعين.
(73) وهي الأخرى فصحى.
(74) حزمة من قش الغاب الريحي.

(75) أي باشرها، وإن كان التكسير خاصا بالبط وحده في لغة محب، ولكن ما باليد حيلة في هذه الاستعارة.

# الأحمر والأخضر

(١)

ولماذا تشذ، وكل قرية تتعلق بأهداب ولي من أولياء الله، كالقرادة في أعلى فخذه. أو تحت إبطه، تستمد منه الحماية والعون، وكافة شئون الروح والأحلام والبخت والغيب، وبلّ الصدى وكشف الغمة، فضلا عن القدر السماوي والمقدر الأرضي، بالإضافة إلى المخبأ وشر الطريق.

قائمة ضخمة من الأعمال الثقيلة، كان الله في عون عونه، كيف يجد الوقت والجهد، إن لم يكن السر باتعا؟

ثم شيء يفقع المرارة، أن يبني أهل النذور من أبناء محب، القبة في انتظار ولى تبعث به العناية الإلهية، عملا بحكمة: «السَّلَبة[76] قبل الجاموسة»، وذلك لنفض اليد من إجراءات اعتماد محب وتعميدها.

وحينما تبين أن العناية ليست تحت الطلب، لأن قائمة الانتظار يطول بالها، أخذوها من قصيرها في السر وتصرفوا.

ثم انتزعوا من القرية اسمها «محب»، والصقوه به «الشيخ محب»، ثم استعاروه منه لها ثانية، أصبحت محب القشرة الذهبية، وهو الذهب الخالص. إجراءات من أجل ضمان الولاية وجواز السر.

وليت الأمر اقتصر، ولكنه بعد أن اعتمر القبة، وارتاحت فوق رأسه، وارتاح رأسه تحتها، شرع يفشخ رجليه، ويفرض الإتاوة، ويدخل شريكا، حتى صار الآمر الناهي في الأحلام بالطبع. وشمع «منقاد بالداخل، وفانوس بالخارج يضيء له إسراءه ومعراجه إلى كراماته».

ثم.. الحماية المادية، وهي الإدارة المعنعنة، التي يتولاها الخفير عن شيخ الخفر عن شيخ البلد عن العمدة عن المأمور عن الوزير عن رئيس الوزراء عن السلطان الشرعي عن السلطان غير

الشرعي الأبتع سرا وجهرا في لزوميات ما لا يلزم.

حمايتان لا تبيتان إلا متعشِّيتين، فماذا يتبقى للكادحين من عرقهم؟!

(٢)

أبواب محب كالعيون، تنفتح مع عين الشمس لحظة إشراقها، وعند الغروب تغمض الأبواب معها. طقس من طقوس محب لا تشذ عنه إلا في أربع: موت أو فرح أو حريق أو سقوط جاموسة في بير ساقية، ولا خامس لها.

ومنذ أن سمعت محب بالنبأ، لم تعد أبوابها ترسو على عقب في ليل أو نهار.

السلطان الأحمر غير الشرعي يريد أن يوسع الطريق، ليكون حربيا بين القيادة في القناة والأطراف، ومقام الشيخ محب يعترض. الإنجليز أمروا بإزالة مقام الشيخ محب.

والكل في محب يسمع عن الإنجليز ولم يرهم، يسمعون أنهم في «مصر» يركبون الحكومة حَمَّاريا[77]، ويقعدون فوق أكتاف الملك منجعصين، فإن أرادوا أن يسرقوه، هزوا أرجلهم ليس إلا.

فقط يعرفون أنهم حمر الوجوه، في لون الطربوش، وعُرف الديك الرومي، وحينما يريد الصغار أن يستحضروهم كما تستحضر الأرواح، يلعبون لعبة الطربوش، التي أطلقوا عليها «لعبة الإنجليز»، يذهبون إلى طرابيشهم الزعراء، وأمام الديك الرومي ينحنون قائلين له غائظين: «طربوشي أحمر من طربوشك». يظلون يكررونها في تحد إلى أن يهبط ببوزه، مفرغا انتفاخه في كركرة هائلة، أشبه بموسيقا القِرَب.

ولكن الإنجليز في الحرب، ينزعون عن وجوههم كل الأقنعة المصرية والبراقع، لقد حددوا موعدا لإزالة الشيخ محب.

ـ طب وما يزحزحوش الطريق من جنب المقام ليه؟

ـ دول شبرين يا عالم!

ـ يعني حبكت، طريق على ميزان الميه يا هوه!

وباتت محب على دخن تغلي.

(٣)

ومع حبة ندى مدلاة من عود يتدلى من حافة ماسورة مجارٍ ضخمة ملقاة على حافة غيط، تتلكأ أول شعاعة، من خلال الماسورة تنفذ، وفي زاوية حادة تدخل.

على رِجل بشرية مثناة، تحط وتفرش وتتكئ وكأن المكان سدرة المنتهى، تمتد الرجل على راحتها متسلبطة، حتى تطل من الماسورة إلى حيث عشرات من الشعاعات تلعب الحجلة، وتنط الحبل على عتبة الماسورة.

تطل الرجل الأخرى محتكة بتوءمتها في عصبية، تتقلصان معا، ثم تنسحبان إلى خارج الماسورة، وتظلان تطولان إلى ما لا نهاية.

ساقان طويلتان مُعصعصتان، كماسورتي بندقية بروحين، في آخرهما قدمان طريتان في ملامحهما بقايا نعمة، يظهر الجسم ويخرج الرأس وينعدل، يستقيم الرجل على رجليه.

كالفنار يدير رأسه. عيناه تسرجان، إلى أن تستقرا على الطريق إلى داخل محب.

ماسورة المجارى ـ التي تبقت بعد تركيب الخط من المدينة، لتصب في مياه محب ـ اتخذها بيتا.

قدماه على الطريق خفان، حينما تلمِسان الأرض تفرشان وتلبدان.

ومن فوق أكتاف مستقيمة كأكتاف القبان، وتحت شعرات الحاجبين الكثَّين النافشين الثائرين، عينان تتحدد بهما الأشياء وتثبت.

عند مدخل القرية توقف ينظر ويتملى من قرن الشمس، يشحَن عينيه، والقرن خرج أحمر كبيرا مائلا يطشُّ في سحابة، لم يرفع عنه عينيه.

حينما اتسع إلى حجم الغربال، عقد ما بين حاجبيه، وفرد قامته الفارعة، واشرأب إلى رأس المئذنة إلى جواره. استدار الفنار، تطلع إلى خيال المئذنة وخياله. الاثنان كالساقين متلازمان، وفي طول واحد.

وحينما استعاد نظره، كان المنظر قد تغير، الشمس صبغته باللون الوردي، والبيوت فتحت عيونها وأفواهها على مصاريعها.

اخترق الطريق، وفي سكون الصباح مضى يردد بصوت كالرعد:

علي العبادي موش ابن الكلب.

اللي فرعنوك يا فرعون.

همه أولاد ستين كلب.

ستين كلب.

قربت ساعتك يا ابن الكلب.

جاي لك عسكر من تحت الأرض.

يا فاروق يا بن نازلي

يا كلب يا ابن الكلب.

والصوت يزلزل محبا، فتفنجل البيوت كل عيونها، وتصطف على الأبواب والشبابيك والسطوح، والأطفال من بين السيقان تتسلل إلى الطريق خلفه، وكلما تقدم تضخم الموكب، حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة، استدار إلى قطيعه هو النخلة، تحته من بعيد تتطلع جوقة من أطفال محب، لم يتخلف أحد عن هذا المشهد من حياة محب.

يقبض حاجبيه بشدة، تتجمع الشعرات الثائرة في مؤتمر. تتقاطع كالحراب المسددة. ينفخ. يشرئب. والصبية عصافير الصباح شاخصون.

وبالجوقة استأنف السير إلى الكَفر. الشق الآخر المزدحم من محب.

علي العبادي موش ابن الكلب

اللي فرعنوك يا فرعون.

يسرع الأولاد: همه أولاد ستين كلب.. ستين كلب..

هو: قربت ساعتك يا ابن الكلب.

جاي لك عسكر من تحت الأرض.

يقشوك يا منمفوخ يا ابن الكلب.

يا فاروق يا بن نازلي.

الأولاد: يا كلب يا ابن الكلب.

يختلج علي العبادي، لأن المنظر استهواه، فيعيده مسرعا الخطى وعيناه تسرجان.

علي العبادي موش ابن الكلب.

اللي فرعنوك يا فرعون.

همه أولاد ستين كلب.. ستين كلب.

حاجب الطعام عن جعان.

كلب ابن كلب.

وظل يكررها حتى خرج إليه أحدهم، واقتاده إلى الداخل، وبعد دقائق خرج مندفعا زاعقا:

ملوخية من غير لحمة يا ابن الكلب؟!

علي العبادي موش ابن الكلب.

ملوخية من غير لحمة.

يا ابن الكلب؟!

(٤)

وقبل الموعد المحدد الذي ضربه السلطان الأحمر لهدم ضريح الشيخ محب بثلاثة أيام، ومع مطلع النهار الجديد، سد غربال الشمس، بدا في هذا الصباح كفلق النخل، بل الجمل الغاضب، مضى يضرب بالقلة[(78)]:

علي العبادي موش ابن الكلب

انتو أولاد الكلب

سيبوا الأخضر للأحمر.

علي العبادي موش ابن الكلب.

انتو أولاد الكلب.

سيبوا القوة للكرامة.

دار يهدر بها في الشوارع، والظامئون الكبار خارج أبواب الدور يقفون على رجل، لا يريدون أن يصدقوا هذا الرسول العاتي الغريب، الذي وفد منذ أيام، والصبية من ورائه يتزايدون، وقد

ازداد خفه في الأرض التصاقا، مضى ويداه الطويلتان براحتين كالمطارح تمتدان:

علي العبادي موش ابن الكلب.

والصبية حفيين بالجملة في البدء، وبمدلولها بعد، يردون ناظرين إلى عيون الكبار زاعقين:

انتو أولاد الكلب.

سيبوا الأحمر

فيسرسعون: للأخضر.

علي العبادي موش ابن الكلب

انتو ولاد الكلب.

سيبوا القوة

يسرسعون: للكرامة.

لف القرية كلها، ثم انحسر كالموجة مخلفا الفراغ المخلخل.

لم يسأله أحد عن معنى ما يقول، لأنهم موقنون أنه لا يسأل عما يقول أو يفعل، ولأنهم فهموا جيدا، إلا أنهم يريدون أن يلمسوا بل يمسكوا.

جمعوا هذا وصروه، وداروا به بحثا عن ابن سيرين. وإلى ابن لهم يدرس بالأزهر، سافر وفد من الفور، وفي حجره ألقوا بالصرة.

ـ يا شيخنا الأمين، عبد الحميد، أفتنا.

وأفتاهم بأن الأحمر هم الإنجليز، وأن الأخضر هو الشيخ محب نفسه، إنه يقول لكم: دعوا كرامة الشيخ محب، تتكفل بالإنجليز، إن صدق أوقفهم، وأنا أضم صوتي إلى صوته.

وتركت محب الديكين متواجهين.

ليلتها غلَّقت أبوابها مع الغروب، ونامت ملء الجفون.

(٥)

لم يتركه الأطفال، التصقوا به، استقّفوه[79] واشتدوا عليه، حتى أوشك أن يفقد استقلاله وانفراده بصعلكته.

ذات صباح، كان مقعيا أمام عتبة داره الماسورة، وهو يدخن من وهبة سجاير حملها إليه شابان لم تطمس لقمة العيش رأسيهما، قال أحدهما: العمدة جاي أهو.

ـ اسمه إيه؟

ـ محمد رسلان.

وانتصب من مجلسه، وقد انقلبت سحنته، زاعقا:

علي العبادي موش ابن الكلب.

يا محمد يا رسلان يا ابن الكلب.

حوش عني العيال يا ابن الكلب.

وأسرع إليه شيخ البلد الحاج سيد العرباني، يمسكه في ود بالغ:

ـ طيب طيب يا عم علي، حاضر يا عم علي، حنحوش يا عم علي. ولا يكون عندك فكر يا عم علي.

أما العمدة الجامح، فقد ولى ولم يعقب، أو يعتب هذه الناحية من بلده عمره.

(٦)

منذ التباشير الأولى للنور، التي تبعث بها الشمس طلائع قبل أن تظهر، أفرغت بيوت محب ساكنيها، هرولوا إلى الترعة الشرقاوية.

وحول مقام محب، تحلقوا في دائرة مفتوحة على الطريق.

والأرجل التي كانت كرفاس القطار تحركها اللهفة، انغرزت جذورا راسخة لجدار دائري على البرجل.

وفوقه زرعت الرءوس، كأفاريز الأسوار القديمة، والعيون مرشوقة في الرءوس كالأبراز في ألواح الخشب.

الأبصار كلها شاخصة إلى مركز الدائرة حيث الضريح.

وانشق الأفق عن العمال، وتحركت رءوس الجدار، وعجزت الجذور بالطبع.

عمال زراعيون من الزمام، معروفون بالاسم، أتوا بمقاطفهم والمعاول والفئوس.

وعند نقطة الالتقاء بالطريق القديم، تنفتح الثغرة المفتوحة، يدخل منها العمال، تلتئم ليصبح الجدار الغليظ دائريا أصم بلا مسام.

دارت العيون تفحصهم وتزنهم واحدا واحدا، إنجليزيو الهوى؟ أبدا، إذن ما لهم لا يتوجسون أن يصيبهم الشلل؟! ما لهم آلات لا تحس؟ أليس هذا صالح عرنسة حشاش الغاب؟ ومحمد أندوز الصعلوك الأعظم الذي يبول على نفسه وهو نائم بين الغاب؟ ورجب وشعبان ورمضان؟!

ما لهؤلاء بمعاولهم لا يختلج فيهم عرق؟!

هؤلاء لا يؤمنون إلا بالمِّ ليس غير.

وحينما ارتفع أول معول، امتلأت معه الصدور والأعناق والأوداج بالهواء، والعيون.

اليد وهي نازلة، تنشل لحظة ملامسة طوب الجدار. معا نزلت المعاول، كأنما لينالهم مصير واحد.

ارتفعت ونزلت، وارتفعت ونزلت، نزلت، نزلت، وداخل العاصفة الترابية انتظم العمل.

كأي جدار، واهتزت الأكتاف، وتحركت الجذور، وكم أخذت الريح من البلاط. عدم عدم.

لكن لا.. مستحيل إذ ما ذنب هؤلاء العمال؟

الشيخ محب سوف يعطب السلطان الأحمر نفسه لا محالة. سوف يخسف بهم الأرض.

ليلتها نامت محب بعين واحدة ينفخون. بأبواب مقفلة المصراع إن كانت من مصراعين، وموارية إن كانت من واحد.

ومع الشعاعة الأولى تفتحت العين الخامدة على الصوت الهادر يهزهم هزا، وحده بلا أطفال.

علي العبادي موش ابن الكلب.

أنتم الكلاب الخنازير الأنجاس.

يطلق ضحكة مدوية.

**يا ميت ندامة على اللي حب ولا طالش.**

**محب ابن ستين في سبعين كلب.**

**محب فص ملح وداب.**

**ضحكة مجلجلة:**

**علي العبادي موش ابن الكلب.**

**دي القبة الخضرة تاخد ولا تدِّيش.**

**حاميها حراميها يا كلاب يا ولاد الكلاب.**

**ضحكة مجلجلة:**

**دي الكرامة يا كلاب أنجاس.**

**للي عنده كرامة كرامة كرامة.**

**يومها بطوله لم يفتح باب، ولم توارب نافذة. نزل عليهم سهم الله.**

**وانشقت الأرض، وابتلعت علي العبادي الكلب ابن الكلب.**

---

(76) ضرب من الحبال تربط به يد الجاموسة إلى الوتد.
(77) أن يركب الحمار وساقاه معا في جانب واحد منه.
(78) حين يشتد الغضب بالجمل، يخرج من شدقه مع الزبد وهو يهدر، كيس منفوخ على شكل القلة.
(79) فصحاها استقفوه أي تبعوا أثره ليسلبوه حريته.

# فشّـــار محـــب

(١)

في الضحى يعود، يتوسط جنبتي[80] السمك المدلاتين من حماره. ساقاه متشابكتان فوق جنبة الشر، يجوس خلال القرية مناديا: «يا للي يشوي ويقلي يا ولاد، اللي تشوي وتقلي يا بت». ولم يكن يزيد عليها.

تطل محب، ثم تندار لتكشف حللها، وتتحرك بالغطيان لا يتخلف أحد، لأنه يحمل غذاء الجميع: الشِّر الصغير جدا، لبط الموسرين مع فقراء الآدميين، وفي الجنبة الأخرى ما شد حيله من سمك.

في ميدان القهوة صرة محب، حيث تلتقي كل السكك، ينتهي مطافه، وما بين دكان ندى الأب الأكرش، النساج نهارا، وفراش المياتم ليلا، ودكان ندى الابن نصف الأكرش والأبخر فما، المزين وحلاق الصحة ليل نهار.

بينهما يحط جنبتيه، وفي حديد شباك المنسج، يربط حماره العفي، يقدم إليه غمر العشب الذي حشه من لحود القنوات، وعلى كفله يربت في امتنان بالغ.

تنشق الأرض عن القطط تموء وتتمسح، ينتقي لها من جنبة الشِّر حفنة من أصغر صغيرها يلقي بها، وكل قطة تخطف جهدها تجري به ولا تعود، هكذا عوَّدها في زكاته اليومية قبل أن يستفتح.

يعد موازينه، بين الجنبتين يتخذ مجلسه، ينطِّق[81] السمك في كل جنبة، ثم لا شيء سوى الزبون.

وعم حسن ندى النساج الفراش، منحن على الجنبة ينتقي ويعبئ في قراطيس معدة سلفا، ومغروزة في خرق بعارضة المنسج. القراطيس لمن أوصوه ممن لا تخرج نساؤهم، يوصلها بنفسه

ليعقد في مقابلها مع المكنونات في البيوت، صفقات الأخبار الخاصة والملتهبة.

وكلما لاحت لعم السعيد هدأة، بالوسطى والسبابة من فوق، والإبهام من تحت، وبالدهن والزفارة، يفتل شاربه، فتفز كل فردة قائمة على حيلها سُنكيا يقف عليه الصقر في السهرة.

في بحر ساعة زمن يكون قد جبر، يودع ميزانه بسنجه الزلط، خلف قائمة نول ندى القصية، يحمل حماره الجنبتين الفارغتين ويمضي إلى بيته.

(٢)

في العصاري يتفرغ لشئون الحمير، في الساحة الصغيرة أمام بيته ينصب، تأتيه الحمير والجحوش. يسنن ويفصد. يقيد بعض الأرجل الغضة ليعلم الخطى، يثمن ويبيع ويشتري للناس.

(٣)

عم السعيد شلاطة صموت صموت، لا ينطق، إلا بمقدار، والداخل إليه لا يخرج، وإن كانت امرأته حفيظة الفَسَكرية، تحترف الردح في محب، تتزود بالأسرار لتدعى في الملمات.

إذا جلس في شمس الشتاء، أو نسمة صيف، غار إلى أبعاد سحيقة وهو يزنُّ، حتى يبدو كالمصبر، والريح وهي تلوذ بأكناف فمه وأنفه هي التي تحدث الزن منها لروحها.

(٤)

ذهب مرة يقضي حاجته ليلا على جريف[82] مصرف الخشبة. فجاءته قطة، وقفت أمامه تنظر إليه وتطيل النظر، وعيناها تسرجان في الظلام.

قال لها وهو يزغُر[83] لها: بس.

قالت له: لأ ما بابسش.

قال وهـو يشد إليه لباسه قائما بغائطه: أبس اني[84]. أبس اني. أبس اني.

(٥)

بعد العشاء يغتسل ويلبس ما على الحبل، ويخرج إلى السهرة.

وعم السعيد في قهوة يوسف قعر مجلس، تنحل منه عقدة اللسان المربوطة نهارا، تحلها الأعين المتطلعة، والأفئدة التي تتفتح معا كنوار البرسيم.

«أنا كنت راكب حماري

سارح على بحيرتي

غارق في ملكوتي

وباهز ف رجليه

إلا والأرض تنشق

ويطلع لى منسر:

انزل وطلع اللي ف جيبك.

عنها ونزلت.

حكم القوي ع الضعيف.

تعمل إيه ياد يا سعيد، في الخناجر التلاتة، في الوش والجنبين؟ وخنجر الوش جايلك من تحت، ومقور، زي الشرشرة؟

وف إيد مين؟ شيخ منسر؟

يفك زرارا من زراير الصديري، فاتحا لتيار الكلام طاقة. تنحبس الأنفاس أكثر، حتى تسمع للإبرة هبدة المرزبة.

تعمل إيه يا سعيد يا وحيد.

من غير لا سلاح ولا حديد؟!

يفك من الصديري زرارا آخر.

ورحت متمكن.

ونافضه قلم.

انغرز في الأرض سبع تمتار.

ولأول مرة يمسح سامعيه بنظرة، ليسبُر على الأصداغ رنين القلم.

وعم مصطفى الجمل، ترمومتر كل صهبا، يسرع ـ وهو يدعك صدغه بيده ـ بإغلاق فمه الذي نسيه مفتوحا على مصراعيه من جراء موقف كان بالأمس حاميا، ليفتحه من جديد.

عليَّ الطلاق، انغرز في الأرض سبع تمتار

طلاق تلاتة من حفيظة

كل ما تحل تحرم

سبع تمتار

إجت الخلايق ضفف

تسد عين الشمس

عليَّ الحلال نفضة قلم واحدة

ما تنيتها

وهات يا عزق وتشوين

همه مين؟

يفك زرارين معا:

عنها ورحت فارد دراعاتي

وزايح باليمين أهل اليمين

وبالشمال أهل الشمال

وللأرض وطيت

ورحت نابش بصبعي

عليَّ الحلال نبشة واحدة ماتنيتها

وناتشه مُوَقَّفُهُ على حيله

ومطبطب عليه، وقايل له

وإيدي بتقرص في ودنه:

المرة دي عدَّت على خير

تاني مرة يا شاطر

ما تهَوِّبش ف سكة عمك السعيد

عمك السعيد شلاطة

إيـــــه؟!»

ويتنفس المجلس ويتنحنح، وتتحرك الكراسي، وتتحكك الأقدام والمداسات بالأرض، وتزعق الأصوات بالطلبات.

وكلما مر أحد بساحة القهوة، تطلع إلى زراير الصديري، ليدرك إلى أي حد وصلت سخونة المحدث.

وبعجلة، وقبل أن يبرد منه الجو، يرتفع صوته، وهو يزرِّر مافك:

«وليه؟

دنا داك النهار

وأنا باخوَّض في الميه

على فيض الكريم

وقع لي لبت[(85)] سمك، لكن مكن

قد العجل اللباني

طلاق تلاتة عجل لبَّاني

أوديه فين؟

توديه فين ياد يا سعيد؟

وقدامي، لقيت ساقية واقفة

بتمد لي دراعاتها

عنها وربطته في الهدية[86]

ونزلت أكمل صيدي

ولما طلعت بحجر بيتلعبط

لقيت الأرض على مدى الشوف

غرقانه ميه

طلاق بالتلاتة من حفيظة الفَسَكْرِيَّة

كل ما تحل تحرم

عجل السمك

دور الساقية، وروى الزمام

عليَّ الحلال الزمام كله

على داير حوض وتربيعة»

وتهيج الزيطة والزمبليطة، ويوزع يوسف شومان الجوز، وتُجْبَد الأنفاس، ويعربد الدخان.

طبِ وجالكو كلامي؟

دانا أوِّلْتِمْبيرح[87]

شفت في المنام

خير اللهم اجعله خير

أني في قلب شكلة[88] مالهاش أول ولا آخر

هد وتكسير ومزاريب دم

عنها ولقيت خمس شمحطية

سادين سكتي

وطابقين في زمارة رقبتي

ده حلم واللا علم؟!

ورحت متمطع

وساكعهم لوكَّامية[89]

وزي موج البحر، سحبني النوم من الحلم

اللا والحاج علي الجمل، الله يمسيه بالخير

خارج لصلاة الفجر

لقى إيدي بره في الشارع

إيدي يا خْوَنَّا خرقت الحيط

شدها وندە عليَّ:

عم سعيد يا عم سعيد، قوم أصح

واسحب إيدك من الطريق

ونظروا إليه مأخوذين لا يرمشون، فتولاهم بسرعة:

طب وقولتلكو إيه؟

أني امبيرح بس

سحبت حماري

ودماغي سارحة

ماهياش ويايا

واجيت انط عشان أركب

لقيت نفسي فوق، فوق السطح

وانفجر السامر في قهقهة، وحركة دائرية، وامتدت الأيدي من تحت الصداري والآباط تهرش.

(٦)

صالح عرنسة الحشاش والصعلوك النزيه، وحشاش الغاب، والباصق في سمكة البوري قبل أن يبدأ الأكل، ليغلظ في عزومته دون أن يتقدم أحد بالطبع، في الضحى كان ينتقي نصف أقّـة،

**فاعترض عم السعيد على تفعيصه سمكه، فأمسك صالح بخناقه، ورقعه قلما دارت به في رأسه جنبتا السمك والميزان والزبائن والدكاكين والبيوت، والعيون، والصمت الذي حط فجأة على محب.**

**غطى عم السعيد صدغه بكفه، ولم يرفع إليه بصرا.**

**وبعد العشاء، وبحكم العادة، وعلى نبرة حرجة من استحياء، اتخذ مكانه الليلي من القهوة.**

**من أول استفتاح، لم يجد العين النفاذة ذات البريق، ولا الأذن التي كانت.**

**انطفأت النار، وخمد الألق.**

**(٧)**

**وكل يوم من الفجر الكاذب(90)، يركب حماره ويرحل. لا يعود إلا بعد العشا بكل عشا.**

**يتخذ مكانه من البحيرة، شاخصا إلى مائها، وكلما ارتفعت موجة، غطى صدغه بكفه.**

---

(80) الجنبة أضخم من القفة، والقفة أضخم من المقطف.
(81) يهزه هزة الغربال، ليجعل من عاليه سافله.
(82) المنحدر من الضفة.
(83) يطيل النظر بلغة محب ويدقق.
(84) أنا بلغة محب (أني).
(85) هو الكبير الضخم من البوري، والصغير هو القطع، أما المتوسط فهو البوري.
(86) الذراع التي يجلس عليها الغلام والبهائم تدير بها الساقية.
(87) أي أول امبارح (البارحة).
(88) أي عركة بلغة محب.
(89) أي لكمة.
(90) كثيرا ما يبيض الأفق الشرقي قبل الفجر، فينخدع به ديك مشوشة أجهزته البيولوجية، فيصيح معلنا الفجر الكاذب، وتقول القواميس: هما فجران، أحدهما المستطيل، وهو الكاذب، ويسمى ذئب السرحان (الذئب) والآخر المستطير وهو الصادق المنتشر في الأفق.

# من كفنه خرج

انحنى على مسمار صدئ، يخرجه من كتلة خشب عجوز عتيقة، فقدت صلاتها بأي عائلة من عائلات الخشب المعروفة.

أخذ يسترضي الكماشة، والكماشة تسترضي المسمار، والمسمار منتفخ وارم في جوف الخشب المتصلب، والزمن بينهم لائص راكن، والكماشة عتيقة هتماء.

وجهه المنحني كخد الجميزة، التجاعيد والأخاديد والفجوات والأبزاز نفسها، بل ككتلة الخشب التي بين يديه.

ظهره إلى الشارع، ووجهه إلى الحائط المائل إلى الشارع داخل الدكانة الحدباء المتكئة إلى عصا من جنس عصاه التي تسند الباب.

كل شيء ملصَّم.

وطوب الدكانة العاري العتيق، الذي يعي حفر البحر، طوب أضمره الزمن وامتصه، صغير محندق كالفول السوداني في قطعة الفولية.

الكل شارب من بعضه، ومن مسقاة واحدة.

يعمل نجار قباقيب وطبالي وكراسي حمام وأرفف للنحاس ودواليب عيش ونمالي.

والزمن في انتظاره وهو يعمل طول النهار على رِسله، في إنجاز قبقابين اثنين، أو أرجل طبلية في صمت مطبق، لا أحد يحس به في الشارع الصاخب، ولا يحس بأحد، إلا هذه الكائنات الخشبية التي عملت معه في الوقت الإضافي.

يا عم محمد من يشتري اليوم قبقابا بحذاء أو زنوبة، والقبقاب في إثر الطربوش مضى؟! من يأنس إلى طبلية، ويُسْلِم قامته إلى كرسي قريب من الأرض؟

وانقطم المسمار الصدئ.

وانعدل في وقفته، ووصل سرواله العَبَك إلى صابونة رجله، وتحركت شفتاه باسم من أسماء الله الحسنى، وخرج صوته منغما.

كتلة الزمن العتيقة، لم تستطع أن تئد فيه النغم مع ما وأدت من ذكريات.

كان الكبار صغارا وهم يشهدون التراويح في رمضان بمسجد النعمان، وعم محمد النشار يبلغ خلف الإمام.

الإمام يتلو: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ﴾، وهي أقصر آية في القرآن، فيبلغ: الله أكبر، سمع الله لمن حمده، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، متصلة في الركوع والسجودين والقيام في نفس واحد طويل منغم.

وفي ثلاث وعشرين ركعة، لم يكن يدع لأحد الركون إلى غفلة أو سنة من نوم أو سرحة.

كان يملأ الآذان الصغيرة بريح المسك ونسائم الجنة.

أيام كنا صغارا، يوقظنا من أحلى نومة، صوت أبعد ساقية من سواقي الرز الساهرة دائما، نتسلت من البيوت الغارقة في وخَم النوم وأبخرته، إلى السحر ـ قبل أن يدوس الكبار رقائق أحلامنا ـ ركضا إلى السواقي الناعرة بالخضرة الجارية الرقراقة، نمسك عنهم بالفرقلة[91] نلاغي بها الثور والجاموسة، ونعتلي هُدْيَة الساقية تهدهد لنا أحلامنا، وهي تلف بنا مدارا بعد مدار.

لم يكن يخرجنا من هذه الأحلام إلا عم محمد النشار وهو آت من بعيد، لافعا مقطف العدة على ظهره، ويده تطل مع أيد أخرى بعضها من الحديد البارق، والبعض من الخشب الأصم.

يده مع أيدي العوَّاقة والقدوم والقرناص والربوع، والمنشار في يده اليسرى يتطوح.

كان يعمل نجار سواقٍ، يلف زمام كل قرية، «ويطل» على السواقي ساقية ساقية، كحلاق الصحة الذي يلف على الزبائن يعطي الحقنة أو الشربة.

ولم يكن عم محمد يتقاضى عن كشفه فلوسا، وهل للرمز قيمة مع وجود الأصل؟

كان أجره من المحصول مع مالك الأرض وحلاق الصحة والمزين والفقيه والندوة والقيظ والغيظ والصقيع.

كان يقطع الفراسخ على قدميه، ولما تقدمت به السن، استعان بحمار.

كان نجارا نطاسيا، يعرف السواقي جميعا، ضعفها وقوتها، ودبيب السوسة في أحشاء ضرس من ضروسها، والوهن الذي يتسرب إلى ضلع من ضلوع صغيرها أو الكبير، يعرفها من صوتها ومن ركنتها في وقفتها.

أما إن تصادف مروره في رحلة عودته بليل، والجاموسة لا الثور، لأنها دائما المجاورة للبئر لإراحتها بقصر الدورة الداخلية عن دورة الثور الخارجية..

إن تصادف مروره والجاموسة ساقطة في بير الساقية، والفلاحة تشيل من طين القناة، وتحط على رأسها..

إن تصادف وما أكثر النوائب في محب، فهو السريع إلى الساقية، يفك صغيرها والكبير، كما يفك الساعاتي تروس الساعة.

ـ يا عم محمد، بيصبَّح عليك أبا درويش، وبيقول لك، والنبي اللي بتحبه، وتحب تحط إيدك على شباكه، تركب للقبقاب دهو سير جلد معتبر، وتثبت السير بوزرة نحاس.

وانفلتت البنت تحجل.

في العام الماضي كان له ابن قيمة وسيمة، نجار أيضا ولكن نجار موبيليا، ونجار السواقي في محب يلد نجار الأثاث، فتح الله عليه وفتح معرضا، واستهواه الفتح فكتب على بابه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وتزوج وكان له ولدان، أول العنقود غليظ كزهرة البشنين[92]، وآخر العنقود رقيق كزهرة الفدين[93]، وكانت له عَجَلَة، والعجلة في محب تلدها الحمارة.

عجلة بسلوك تعكس الأضواء، وبنور أمامي ساطع، ونور خلفي أحمر، ضلوعها مكسوة بالمشمع البراق، وعن يمين وشمال مرآتان تضيئان، كقرني الجَدي المختال فوق الجدار، من أجل أن يرى من خلف كما يرى من قدام، وجرسان، واحد أنثى مسرسع، والآخر ذكر قرار.

وكان اسمه أحمد، ومحمد في محب لا يلد إلا أحمد، بهذا جرت الأصول.

وقبع عم محمد النشار في البيت، داخل شرنقة حريرية من خير ابنه أحمد.

هدأ في المعاش لا يظهر إلا في رمضان في صلاة التراويح، يبلِّغ بصوت الجنة في آذان الأجيال.

وانحنى إلى القدوم، وببطئه هو الزمن، أخذ يُنَخْوِر في كتلة الخشب، حول المسمار الصدئ الناقش، ليمكِّن للكماشة ثانية.

كان لعم محمد ابن اسمه أحمد.

واليوم، لا ابن، ولا عجلة، ولا حمار.
اليوم على الحصير الأحمدي.
في عنفوانه سقط.
سقط الابن.
تقصَّف.
كعود الصفصاف.
أبناء اليوم كشجر الصفصاف.
منظر وشعر مسبسب، وظل وارف، ويمام يفيء[(94)] وعصافير.
أسقطته الكمبيالات والبروتستو، والاتساع الذي ضاق عنه إهابه.
واليوم عن عم محمد ذهبت نجارة السواقي.
والسواقي تحتاج إلى عافية ثور، وأقدام فحل، وصبر جمل.
لم يعد في المصباح إلا ثمالة زيت.
وأسرة ابنه أحمد أضيفت إلى الجد.
الأحفاد أخرجوا الجد من بياته الأخير.
من الشرنقة.

من كفنه خرج عم محمد النشار، منحنيا إلى الدكانة المنحنية.

رجل طبلية، قبقاب حمام، وزرة نحاسية، كرسي طشت، عصفورة لنملية، أو دولاب عيش.

يغزل بها الحياة لأحفاده.

من يرزق الدودة في الحجر.

وانقطم المسمار بين فكي الكماشة.

وارتفع شاكوش الجزمجي محمود قامش إلى جواره، يدق المسامير سراعا في الجلد المشدود إلى القالب.

(91) مقبض خشبي يخرج من عينه حبل طويل من التيل، وهي للماشية وحدها، تفرقع ولا تؤلم.
(92) نبات مائي، ذو زهرة داكنة، ودرن كنا نأكله ونحن صغار.
(93) هي اللوتس.
(94) يستظل.

# القرطاس الفارغ

رقبة كالبربخ[95]، فوقها دايرن داير فك كرواق[96] البيت، وكتفان في عرض الناف، عملاق كف وقدم.

ومنديل محلاوي مشغول بالحناء في حجم ملاءة السرير، يتعمم به ملفوفا في الشتاء، مفرودا في الصيف، وطرفه يسترخي على قفاه المسحوب كسفح التل.

عالمه أطفال محب وكل الشطوط، وفي آخر الموسم تظهر النساء: الفقيرة تملِّح، والمبسوطة تُحلِّي مربّى.

لا يفنجل عينه، إلا وهو يرسل الطرف إلى زيق الأرض المزروع بالجزر.

جيدا يعرف الجزرة المدفونة في باطن الأرض، من رقص الورقة المشغولة المنمنمة على هبات النسيم، ومن درجة لونها الأخضر.

كل فلاح يزرع له زيقا أو شريطا في فضلة من أرضه كعرف جار، يتبلغ به حتى يحين المحصول الكبير.

بيوت محب تنفتح في الفجر لتصب في الجامع، وبيته يصب في زيق الجزر الذي دعاه بالأمس.

يقتلع وجبة اليوم. يحمِّل بها عربته. يجرها إلى منزل الترعة. يعتق حمله. يغطسه في زاوية المنزل إلى جوار قوائم الجسر. يدعك الجزرات. يربطها في حزم. يرصها في العربة، منضَّدة في نسق لوني رفيع: كئوس حمراء ناطقة، وشواش خضراء نابضة.

يواجه العربة، يقبض على يديها بيدين من حديد مَعَزَّة، وفي يسر يدفعها لتمضي بالدفعة.

يجر العربة والجزر غُفل، ويدفعها والألوان النضيدة أمامه. بلا أحلام. بلا صلوات. بلا خروج عن الشريط الذي عبدته له حياته منها لروحها.

ولا فراغ. إما معلق في العربة أو نائم. ولا شيء بعد نداء شجي رخيم، يصدر عن هذا الفيل الأليف، ليرطب جوف كل من سمعه: «الشدة أد اتنين يا سِروي[97]».

بعربته يلف الشطوط حتى يَجبُر، ولو اضطر إلى إعادة الطواف، ولو تعاقب عليه الليل والنهار.

الجبر هو الزمن الذي يحدد له نهاية عمله، ليتوجه رأسا إلى بيته.

إن جاءت عودته بليل، وغالبا ما تأتي، نادى امرأته بصوت أجش، وهو يخبط شباكها، دون أن يفقد صوابه أبدا: «بت يا هانم يا بت».

وتصحو الحارة كلها.

حينئذ يكون البيت بالحتم، خاليا من الخبز، فتبعث به امرأته إلى المدينة المجاورة، والحارة كلها تلقن معه الوصية الأزلية.

ـ بطَّل فروغية عين. لـجِّم بقك. ١٢ رغيف يعني ١٢ رغيف. أنا بقول لك أهو يا راجل يا مفجوع. حتبات من غير عشا وذنبك على جنبك.

يتأبط هذا الحمل من الرغفان، وفي ظلام الليل الرابض له، في أعطاف الطريق، يحلو لمعدته أن تزوم، يمزع الرغيف من تحت إبطه مزعتين، وكل مزعة مضغة.

والحارة تصحو ثانية على الصوت:

ـ إنت يا راجل يا مفجوع، مفيش في عينك نظر؟ جاموسة تلوش ١٤ رغيف في السكة؟ تتصبر بـ ١٤ رغيف؟! يا ريت طولك عندنا جلة.

ولم يكن يأبه بكلام. قرصة برغوت. بل زنة ناموسة.

والحارة تدرك أنه بدأ الأكل، وزنُّه يرتفع مع المضغ والبلع، والليل جلَّاء للأصوات، ولكل دولاب دَوَّار نبراته، ونبرات عم عبده، أشبه بقرط قش الرز بالشرشرة، قبل إلقائه مع الدريس المقروط للجاموس.

والهُلَّيلة تشتعل في الحارة، يوم تبعث به امرأته في شراء سمك. في الطريق لا بد أن يأتيه الصوت المرادف للسمك والمخاويه: نو.

وبسمكة تمتد يده بلا أدرية سابقة، تلقي إلى «النوة». ويفسح الصوت لأصوات: «نو نو»، وتلقي اليد بسمكة ثانية وثالثة ورابعة.

وفي موكب من القطاط يصل إلى محب، وبيده قرطاس فارغ مقلوب، يحتفظ به لامرأته، برهانا.

والغريب العجيب أن امرأته لم تقلع أبدا عن تناول السمك المزعوم، لعل منظر القرطاس الفارغ المقلوب، كان يستولي على لبها، بل ربما ألفاظ التقريع والتوبيخ التي تريد أن تخرج منها.

ويوم مات عم عبده السايس، ترك العربة عند منزل الترعة، وقد نضدت ألوانها على آخر سنجة. نسق الباقة، وأقلع بلا رجعة.

حل المسألة، فلا شيء سوى تغيير حمار العربة.

سقط من طوله بين يدي عربة الجزر، وهو يهم بدفعها.

يومها لم تضع امرأته هانم وقتا، كأنه نداء خفي، وربما كانت منومة.

لم تكد تنتهي من طقوس الدفن، حتى أسرعت دون حساب، إلى عربة الجزر المنتظرة، تواجه عريشها، وتقبض بيدين من حديد على يديها، لتدفع.

لحظتها نزل عليها سهم الله، غطست في بحر الصمت.. غرق فيه لسانها السايب ولم يطفُ.

امتدت يدها في جيب العربة أمامها، إلى المنديل المحلاوي المشغول بالحناء، تتعمم به مفرودا، وطرفه ينسدل على سفح قفاها.

يومها سارت العربة بها في مدارها، تُعرِّفها الطريق من قرية إلى قرية، والنداء السروي الشجي الرخيم، الذي يرطب جوف من يسمعه، يفتح لها طريقها، ولم تعد إلى بيتها إلا بعد أن جبرت.

كانت الحارة ساعة الحوار الليلي، تستيقظ لتترحم عليه، وترصد دقائق ما يحدث من بعده.

وأولت الحارة اهتماما خاصا بعدد الأرغفة المشتراة، وما ينتابها في الطريق.

حوار كان يدور بينها وبين هانم كبرى بناتها، وبالكلمات المدونة في لوح هذه العائلة المحفوظ، هانم خليفتها على دكانة الخضر والفاكهة.

**تعود إلى محب ليلا، ولا تكاد تتعدى ساقية العفاريت في مدخل محب، إلا وقد شمطت ١٤ رغيفا.**

**وتدخل محبَّ، وخلفها موكب القطط نفسه، إلا أن القرطاس الفارغ المقلوب، كان يبقى معدولا.**

---

(95) الأنبوب أو الوصلة القصيرة الواسعة من خزف، توضع واحدة منها أو أكثر تحت الجسور والمعابر ليمضي الماء في طريقه.
(96) مقدمة البيت البارزة عن الدور الأرضي، وفي محب صدر صالة البيت الفسيحة، يرتفع درجات إلى مسرح مشرف وشباك مشغول بالعربسكات يبتلع الحائط، والرواق للسهرة.
(97) نسبة إلى مدينة السرو من أعمال المحافظة نفسها، ومحب كلها تعلم جيدا أنه محلي.

# بير الصمت

(١)

في نهاية يوم من أيام بليدة بطيئة، لا يجد فيها من يأجره، لم يُبَيِّت عليه عبده عواجة، ليخرج مع الخارجين إلى الغاب في البحيرة يحشونه، ولا مع المشوِّنين ومطهري الترع خلال هذه السُّدَّة الشتوية[98] اللعينة، ولم يطفح مجرور في طلب نزحه.

الشرشرة لا تغادر يده أبدا، وعند النوم يكمم أسنانها بطاقيته، هي امتداد يده التي تحش له القروش العصية.

الشرشرة لم تر ضيَّ العمل منذ جمعة[99] كاملة، وكانون البيت لم يخرج دخنة تدمع عينا.

في أصيل ذلك اليوم، شحذ من جاره إبراهيم العاصي شِلبا[100]، ونزل الماء الضحل. وفي أعقاب الغروب، وحدود المعالم تذوب، وقعت له سمكة من نوع الحمار، ملءُ العين واليد، تربت في غفلة، وأفلتت من كل الشباك، لتكون من نصيبه.

إبراهيم جائع، وبيته يتضور. يستاهلها.

في سوسة قفاها غرز إصبعيه الحديديتين، ومضى مزفلطا إلى ساحة القهوة، والشرشرة الغارزة أسنانها في قبة الجلباب تتطوح، ومكان شلاطة السماك جلس بها.

امتدت إليها أيدي الرجال، إلى الخيشوم تفتحه، أحمر. ومن طرف رأسها تحملها أفقيا، جسمها متماسك، لا تزال فيها الروح. وإلى بطنها تمتد الإبهام والسبابة تفعصان: جرى إيه يا إبراهيم، دي راعية[101] راعية يا حبيبي.

ساموها جميعا، ولم يزيدوا عن الستين فضة، لم يتزحزح عنها أحد، ولم يتنازل هو عن أم قرشين صحيحة. وتولت عنه القرية، وألسنتها كالمبارد تهري بدنه.

وحملها ومضى.

وحينمـــا هـــل عـلى بـاب البيت، زعـق على امـرأته كالغـــالب: بت يا فطومة يا بت، قومي فزي أوقدي النار.

ومن فوق العتبة فزت حين لمحت الصيد الثمين، أطلقت زغرودة، سحبت النسوان من قعور البيوت، وامتلأت الحارة بالزغاريد الوافدة تزف حمار السمك.

وانفض المولد، وعلى الكيب كوَّع[(102)] إبراهيم، والأولاد حول النار يحومون، ويحرجمون.

وتوسطت السمكة المشوية الكيب، وحولها إبراهيم والأولاد حرسا خاصا، عيونهم مشدودة إليها بحبال من زرد.

وخرجت الولية تأتي برغيفين سلفة.

كالبرق الراعد، انقضت قطة، انشقت عنها الأرض.

في ومضة برمَّتها حملتها.

أمام حبة عينه حدث.

لم تخلِّف إلا قشرة في حجم أم قرشين، التصقت بقعر الصحن الصاج المقشور.

اندفع إلى الشارع مطلقا صرخة، ارتدت فيها اللغة إلى أصوات بدائية.

أطلت الحارة. عادت فطومة. رقعت بالصوت. والنسوان على العتب يصوتن كالغربان، قبل أن يعرفن السبب.

وكان ليل.

وفي الصبح خرج إبراهيم الكودية إلى الناس، ولسانه غاطس في بير من الصمت.

انخـــرس.

تركه الكبار ليتسلمه الصغار.

وحينما ازدادت وطأتهم، تغير وضع الشرشرة، فقد أمسكها من يدها بدل طرفها.

لحظتئذ أدرك الصغار أن الأمر جد لا هزل فيه، فانفرطوا عنه من الفور، ولم يفكروا قط في الرجوع إليه.

(٢)

من يومها أحست القرية بوطأة القطاط عليها. صار كل بيت يدخله سمك ينتقي منه شِرَّة صغيرة جدا، تلقى في خزنة[103] بابها موارب، ووراءها بالضرورة تنفلت قطة، يغلق عليها، وبعصا وقفص منكس، يكفأ عليها، ثم تفرغ في زكيبة.

وتبدأ مسيرة التيه بعيدا، إلى الضفة الغربية لبحر النيل، حيث تطلق حرة لكن غريبة.

كانوا يتجشمون الطريق الطويل جدا إلى الغرب، ولم يقبلوا قط أن يلقوا بالزكيبة دقائق في قاع مصرف الخشبة، تزهق فيها أرواحها السبع.

(٣)

الكلوب يتوسط صحن قهوة يوسف، سهران يشخر، يرتفع ضوؤه بالشهيق، وينخفض بالزفير «والقمر في الشارع يزدهي في السماء، يمر السحاب المتناثر فيخفت ويمضي فيرتفع ويزنهر».

تحت الكلوب اكتمل العِقد يهرطون، وكلما انحسر الضوء قلت الحصيلة، واشرأبت الآذان، ولمعت الأعين في الظلام خلف الكلام.

إبراهيم الكودية على الدكة جالس، ساقه اليمنى الطويلة قائمة على الحافة، يده فوقها مطبقة إلى الأرض، فكه الضخم الملووح جزء من صدره، والهيكل المترامي غارق في نوم عبوس. عزرائيل غاف.

جهاز الراديو الوحيد في محب يهرط، وهو يقطع الرحلة اليومية إلى كل إذاعات العالم المتحدثة بالعربية، حتى حفظها صما، وأمسى لو لم تمتد إلى زره يد في الموعد، ينتقل من نفسه مهرولا، ضارطا كحمير التتريب حين تُزَرْبِح[104].

ارتفع شخير إبراهيم فجأة، في مقطع منفعل أسكت الحلقة، اندارت إليه العيون، وانفشخت الأشداق عن ضحك مكتوم.

ـ انتو عارفين إبراهيم بيحلم بإيه؟ بالسمكة يا ولداه، بيقول للقطة بس. السمكة طالعة من نضره، من نافوخه.

ـ بس يا قطة.

وارتفع الشخير فجأة، متقطعا كالقصف.

ـ قوم عمّر المدفع وأطلق، للحكومة توديك في داهية.

ـ المدفع يا إبراهيم لتروح في أبو نكلة.

وقفز إبراهيم على حيله قائما.

(٤)

هو مدفع المدينة، ينصب في رمضان على بحر النيل، وإبراهيم أيامها كان في الرِّديف[105] ومهمته إطلاق هذا المدفع. أربع عبوات في اليوم، يتسلمها عهدة مستهلكة، في السحور مدفعان، وعند الظهر دائما واحد لضبط الوقت، ثم لحظة الإفطار.

وفي سَحَرَ أطلق إبراهيم مدفع السحور، وعسَّل إلى جوار المدفع حتى يحين موعد الإمساك، فجرفته التعسيلة إلى أن أيقظه الشارع في الضحى، وعبوة الإمساك بين يديه لم تطلق.

قام مذعورا كالذئب الذي طلع عليه النهار، لا يرى من العالم إلا هذه المصيبة بين يديه، جسم الجريمة التي ارتكبها في حق الحكومة، ذلك الصوت العهدة الذي لم يطلق.

ومن الفور قام إلى المدفع يعمره، وأطلق.

وكالوز وقفت المدينة على رجل واحدة، وانضاف الحادث إلى رصيد فولكلور المدينة الفكه.

(٥)

ألقى إبراهيم الكودية نظرة بلهاء على الحلقة الضاحكة، وعاد إلى دكته، وقد نقل فكه الملووح من الشمال إلى اليمين. وهرول إلى النوم يغط في بحوره.

مـــاءت قطـــة.

وفي كسل وعشم، حكت بجسمها الساق النائمة.

فز إبراهيم على حيله، وقد تقعر صدره وعجزه.

في لمح البرق، ارتفعت يده بالشرشرة، وهوت وقد انغرزت في ظهرها.

**بالمقلوب عوت قافزة من فوق الحائط الذي في ارتفاع قامتين، والشرشرة بحدة فوق ظهرها تتذبذب.**

**الصمت المخلخل.. حط على الكلوب والقمر والضفادع وكشافات القطط التي تضيق الخناق على السمك في أحواض الرز.**

**الصمت الصخري المكشر، والمرتد إلى وجوه الحلقة داخل القهوة.**

**وضحكة خشنة ثقيلة بلهاء شوهاء تهشم.**

**لأول مرة منذ الحادث يخرج منه صوت.**

**والكلوب يأخذ شهيقا.**

**ـ حمد الله ع السلامة يا أبو خليل يا شرشرة.**

---

(98) الفترة التي يمنع فيها ماء النيل من الجريان في الترع والقنوات فتطهر، وهي في الشتاء حين تقل حاجة النبات إلى الماء.
(99) أسبوع بلغة محب.
(100) كيس طويل، واسع من شباك الصيد ثبتت فوهته في طوق من خيزران، يحركه الصياد جرفا في الماء الضحل، حيث القراميط والشيلان والأحناش والحمير.
(101) أي رعت الطين.
(102) استلقى على جنبه، معتمدا كوعه، والكوع في العامية المصرية هو المرفق، وفي الفصحى طرف الزند الذي يلي الإبهام.
(103) غرفة داخلية لا شباك لها.
(104) أي تربع جارية ضاربة بقوائمها في كل اتجاه.
(105) الاحتياط بعد قضاء مدة تجنيده.

# حَـكَـمة يطارد عزرائيل

إذا خلع عليه أحدهم حذاء، فتح بوزه لأصابع قدمه شرفة تطل منها، وصلة رحم تربطها بالأرض الأم.

الجسر الضيق خاو أمامه. الشمس تسيِّح النافوخ. لا عرق لأنه جف حتى تقدد. مضى مفلوت العيار، يكلم نفسه في حوار حامٍ يشترك فيه الرأس والأطراف.

ـ بقى يعني الخلايق دي كلها، ومفيش ولا زبون يخزي عين الشيطان؟ يعني حبكت؟ إجت لحد عندك وزنجرت، لغاية ما جنزرت[(106)]؟ حكمت عليك يا حَـكَمة؟!

وتزوم بطنه بصوت مسموع.

ـ سامعة يا شملولة؟

وأصابع قدمه تغترف من تراب الجسر، وهو يمشي من الذاكرة.

ـ رقعة صوت لأبو المعاطي، أشق هدومي؟

وترتفع يده في الهواء في حركة هستيرية، ورجله في الاتجاه الآخر كالجمل حين يهبع.. وبكل عزمه تنزل كفه على صدغ فترن. هاهاها.

لحظتها وبحذائه تماما، كان شيخ البلد شخصيا مارا لقضاه. كتم الرنة بيده، ثم تلفت، فلما لم يجد أحدا، لمَّ شمل وقاره، ومضى دون أن ينبس.

نعب غراب إلى يساره في سماء مرش النخيل، جفل وتطلع إلى الأفق: يا فرج الله. توقف.

ثم يسلم نفسه كالعادة، كلما ضاق عليه الخناق، إلى طريقه المحفوظ، يصل إلى العمران، وإلى دكانة الشيخ بَروة يتجه، يواجه مخروط الحناء، لم يخدش، امتدت يده تحفن، وترش المخروط نفسه بالحناء تيمنا، كما يرش رأس الميت في تربته.

وإلى القبقاب العالي الضخم، يمد إصبعه راسما على ترابه المتراكم، الكلمة الوحيدة التي تعلم كتابتها «عزرائيل» تيمنا.

من غُسل إلى غسل، ماكنتش ملاحق، والكوز الذي جف حلقه، وتقشفت شفته، يغمض قبضته بعنف.. واللوفة التي تقددت.

ـ الكوز، اللوفة، القبقاب، ميت مرة كانوا بتوعي ملكي: امتى أرجعكم للشيخ بروة بنص التمن؟ ولا في الأحلام.

يرسو نظره على كرش الشيخ، متحاشيا وجهه.

ـ دا الغراب لسه زاعق فوق رأسي.

ـ .....

ـ دا صوت الغراب ما يخيبش.

ـ .....

واندفع خارجا، وآذانه مقرونة إلى كل نأمة تصدر من شباك أو شراعة باب، وعيناه صاحيتان على الألوان التي تمشي معه في الشارع، الأسود كله كالح، أكلته الشمس، ولم تترك في أرضه إلا لون التراب.

لدى ورشة قنِّير يتوقف.

ـ حكمة، هو عزرائيل لسه حاطط لك العقدة في المنشار؟

ـ اديني.. قرش.

ـ دا عاطيك خازوق لكن مغرِّي.

ـ خد نص قرش أهو، قَرَشك تعبان.

ـ باقول لك قرش يا بني آدم.

ويعلق صوت ماض في الطريق.

ـ اسمع كلامه أحسن لك، مسيرك تقع تحت إيده، وداك الساعة يبقى يتوصى بك في خرجتك.

يندفع حكمة هاربا من المساومة، التي تقلب موازينه أكثر مما هي مقلوبة، إلى المستشفى، بمجرد أن تلمحه دكة التمرجية على البوابة تتزاغد.

ـ له حق عزرائيل ما يهوبش، دي البلد ميتة جاهزة.

ـ أوعى يا حكمة يا خويا اسمي يورد على لسانك قدامه.

ـ دا ساعة ما يقع زبون، حنجيبك من تحت طقاطيق الأرض.

وبآخر رمق يدور إلى ظهر المستشفى حيث المشرحة، إلا أن بطانة أنفه لم تتحرش بها رائحة فورمالين حديثة، أحب الروائح إليه قاطبة.

أما من خرم إبرة في هذا الوجود المهبَّب؟!

وتطلع إلى فوق، المصباح يعلو من حائط المشرحة، يرسل نوره الأصفر المغبرّ من خلال غلالة العنكبوت والهاموش. أحس برعدة فاندار لينصرف، لمح النعش إلى جوار الباب على حافة الطريق، وغطاؤه حان عليه.

أمسك بيد النعش، فينك، كيفك؟ زمان يا صاحبي.

سمع النعش يدعوه، وينزله في عينه، فرَّت من عينه دمعة، ولم يكذب له خبرا.

صعد إلى النعش وتمدد، أحس بلسعة برد تعلو لسعة الجوع، امتدت يده إلى الغطاء يحكمه فوقه، تيمنا، لعله يفك النحس. ذكر عزرائيل ومعاوِنَيْه منكرا ونكيرا.معدته تزوم. بقى ودنك اللي بتسمع دبة النملة، ما سمعتش عصافير بطني؟

وتسترخي الانقباضة، وينجرف إلى بير النعاس.

في السحر تطرق أذنه أصوات على الطريق، فرك عينيه، وحينما أصبح الصوت في محاذاته، رفع غطاء النعش وسأل: إلا الساعة كام؟

خرسوا. قفزوا المصرف الواسع العريض المواجه.

ـ داتكو غرقة ما تْطِفُّم.

وأرخى عليه جفن النعش.

كطلقة المدفع اندفع في الفضاء العالي غطاء النعش. صُوات من محب القرية القريب يشق سماء الظهيرة، اندفع حكمة قبل أن يكسر غطاء النعش المصباح قرب سطح المشرحة وينزل محطِّما، قزح المصرف الذي قزحه الخائفون في الفجر، ومن قلب غيطان الرز والقنوات مضى في خط مستقيم، التقطت أذنه: «الجمل برك على أبو ماضي»، تكسرت بعض مجاديفه، بعد لحظات كان على الباب. تلفت ليدرك الموقف.

لم يقم الجمل عنه إلا بعد أن بطَّطه كقرص الجلة.

قرص جلة!

(٣)

كم نصحوه.

كان المرحوم يكممه لينفرد به حينما تضيق عليه، وحينما يركبه الزَّنـــَّان، كان يضربه بكفر، كان يفش فيه غله وغلبه، حتى سموا الجمل صابرا.

كان رحمه الله يوقن أن الجمل يحوش له ويكوم، ويوقن أكثر أن الجمل غدار بمن به يغدر، ويوقن أكثر وأكثر أنه قدره، كلما ابتعد عنه اجتذبه إليه، ولم يكن يقلع.

وفي أيامه الأخيرة، كان على لسانه أن الجمل حباله طويلة، وعنده صبر أيوب، وأن كل صبور غدار.

في هجيرة اليوم الموعود، كان أبو ماضي الجمال، يتقنفذ في ركن من المناخ مظلم.

قطع صابر القيد وهو يضرب بالقلة، وهرول إليه وهو يضرب بالقلة، وبرك عليه وهو يضرب بالقلة، ولم يقم عنه إلا بعد أن هرسه وبطه.

معذور صابر، ومعذور أبو ماضي، كان مسمارا والشاكوش يدفعه في الخشب.

(٤)

داخل باب القاعة التي ينداح في ركنها أبو ماضي هريسة، أمسك حكمة بخناقهما معا، صاح وهو يهزهما هزا عنيفا..

ـ كنتو فين؟ كل دي كانت غيبة؟ مفيش عدل ولا أصول؟

وتهدأ قبضتاه.

**ـ أنا قلت عزرائيل قبض روحكم، لكن برضه لأ. مين اللي حيجهزكم، ويلقنكم غيري واللا زيي؟**

**ترتخي يداه.**

**ـ وبعد الغيبة الطويلة، موش حرام نتقابل على حتة هريسة، لا تتغسل ولا تتكفن، ولا تنفع ولا تشفع؟! أنتو جايين تحاسبوا مين؟ تعالوا حاسبوني أنا، افتح الدفتر وطلع المرزبة منك له.**

**وارتفع صوته مع يديه تمسكان بخناقهما ثانية.**

**ـ مسخرة ولعب عيال، يكون في علمكم، أنت يا سي «منكر»، وأنت لاخر يا سي «نكير»، يا تقبضوني، يا تقبضوا رو....**

**لم يكمل، ارتخت يداه فجأة، تراجع وعيناه تخرجان أمامه، وقد فتح ذراعيه على مصراعيهما.**

**ـ عزرائيل شخصيا؟! خرَّ على ركبتيه، موش حرام عليك تسيب الخلق تجعلص وتدود بالحيا؟ نشفت ريقي يا شيخ، وطلعت رو... وقطم ...**

**هب واقفا على حيله، ارتجف.. سابت ركبتاه. جاي تـ.....**

**والناس من الخارج حول باب المناخ، أبصارهم شاخصة، والطير فوق رءوسهم.**

---

(106) زنجر وجنزر مادة واحدة من باب تنقلات الحروف المعروفة في العربية، بمعنى صدئ، وإن غلبت الأولى في محب على التوقف تماما والجران، والصدأ يمنع الحركة عن المفصلة، والأخرى تخصصت في الصدأ ذاته دون المجاز.

# حديث الدولاب

وقف أمام دولابه يكلمه، بل يقضي معه مصلحة.

ـ يا دولاب، اسمعني جيدا، أنا لا أعرف اللت والعجن، كلمة ورد غطاها، خمسون جنيها سلفة منك أقضي بها حاجة، وابن آدم لا يستغني، والحساب يَرْني[(107)]، خمسون جنيها يعني خمسين جنيها، يضاف إليها حسب الاتفاق السري المبرم بيننا المائة خمسون، ومن يأكل على ضرسه يا صاحبي ينفع نفسه. لا تخف، فأنا رجل مضمون، كلمتي أضمن من الشهر العقاري، ثم إنك جربتني من قبل، هل تذكر؟ أم أنت كالقطط تأكل وتنكر؟

ويضع المفتاح في ثَقبه.

ـ أنا أعرف ما تقول لعقل بالك، لأنك دولابي الذي صنعته بيدي: صحيح أن السلف تلف، والرد خسارة. وأن ابن آدم على كف عفريت، ولكن من منا يا سيدي يضمن عمره؟!

ويدير المفتاح الدورة الأولى.

ـ آخر مرة كانت عشرة جنيهات، والأمارة أنني أرجعتها خمسة عشر جنيها، ثلاث ورقات خارجة بشوكتها من الرِّزمة. يعني زادت النصف، وأنا أعلم جيدا أنك لا تخرج إلا بالربا، طبقا للسيم الذي بيننا، خمسون يا حضرة ترد خمسة وسبعين، وكلمتي يا عزيزي لا تنزل الأرض.. إيه؟

ويدير المفتاح الدورة الثانية.

ـ ولكي تطمئن، وتضع بطنك في بطيخة صيفية، كتبت لك وصلا بالمبلغ، فلا أحد يضمن الموت من الحياة، إلا أن الوصل بالمبلغ الأصلي فقط، والزيادة (وهنا يخفض من صوته) لأنها ربا لا تكتب، مثل خلو الرجل ووضع اليد، وبلِّ الريق والدخان والحلوان.. هل اقتنعت؟ ما قولك يا صديقي؟

**ويرفع يده عن باب الدولاب، فيرتد المصراعان متنفسين، فيرتاح ويشرق وجهه، ثم يقول وهو يلوح بالورقة:**

**ـ هذه هي الكمبيالة أم خمسين، أتسمع صوتها وهي تخرفش؟ أضعها لك مكان الخمسين، خذ وهات، وانبسط يا عم وزقطط، هل من أحد قدك يا سيدي؟ كالفراخ رزقك تحت رجليك.**

**وبخنصره يشد المقبض، فينفتح الدولاب على مصراعيه.**

---

(107) أي فوري، أو مسوجر على حد تعبير محب أيضا.

# شـــــجاع

سكير، يشرب السبرتو الملتهب، قد يهديه أهل الغاب ماء الجوزة، ليمزج به السبرتو.
ثم يمشي يتطوح، وحوله الأولاد صامتين يتطوحون.
كل يوم تحمله رجلاه، اللتان عليهما حَمله، إلى المدينة. إن هما خذلتاه ـ وغالبا ما تفعلان ـ حرروا له محضر تحر.
إلى أن وصل في أصيل بموكب الصبية، فوقفت المدينة على رجل، وأقلعوا عن تحرير المحاضر، إذ صار من معالم المدينة السياحية.
الحياة في نظر «شجاع» سبرتو، والسبرتو لا يفرق في مسألة التخشيبة، بين داخلها والخارج.. تحرٍ أو إفراج، سيان.
نخاعه دائما يزعق في يافوخه.. يرخي، يوتر حبل الأعصاب.
والأجراس تصلُّ لتصلصل في اليافوخ: «اسقوني.. اسقوني». لا تسكت عنه حتى يشرب.
حن عليه أحدهم يوما. من يده سحبه، حماه، خلع عليه جلبابا أبيض نظيفا، وجلس يسامره. يوصيه، يوشِّي غده.
وجاع فطلب طعاما.
أتاه بسلطانية ملوخية ورغيفين.
بين يديه أمسك بالسلطانية، نظر إليها.
رفعها إلى فمه.
تحت ذقنه توقف.
وفوق أعلى صدره تماما.
صبها..
وانفرجت أساريره.
فقد عاد شجاع إلى شجاع.

# أنـا مـــين؟

يكاد يمسك بخيوط توازنه، قدماه تبصران الطريق، إلا أن الطريق يتطوح به، ثقل رأسه وانحنى، يكتشف لسانه خارجا، يضرط به أن طظ، يا خي طظين.

يفيق ويصلب عوده، يندفع وهو ينفخ وعيناه تبرقان في الظلام، على القنطرة الفاصلة بين محب والمدينة، يستأنف التطوح، الله، رجعنـا؟ أنت بتشـنكليني؟ ما تطيريش الشوية السبرتو من قمع نافوخي.

يمد يده في جوف الليل، مندفعا بحكم قوة الذاكرة في قدميه، مجتازا القنطرة، منحرفا إلى الشمال، حتى يمسك بحديد شباك ضريح «المظلوم». كتر خيرك يا عمي يا مظلوم، دا المظلوم برضه للمظلوم.

يعتدل ليتأمل على بعد خطوات ضريح «الظالم»، والضريحان على مدخل محب يتواجهان.

ـ آدي الظالم، وآدي المظلوم، قصاد بعض، الظالم أبو كرش بينشّ، وسيدي المظلوم مقام ومزار.. ومع كده الظلم مالوش آخر، أنا مالي يا ختي، هو أنا اللي عليه تنظيم الكون؟!

يطأ بقدمه الطريق ويفعصه، تضيق بصاصتاه وتتحددان. يندفع فيعود إلى الترنح.

ـ الله يا معجل ما تزعل! هو يعني الواحد ما يقولشي رأيه؟ اسمع إما أقول لك، حاكم احنا الاثنين ما نتخيرش، بنناس، براطيش وشرفك. يترنح أكثر منحرفا إلى الشمال، يمسك بفرع من الزيتونة الراكنة في الطريق منذ الأزل. يتطوح به، الله هو كله سايب على نفسه، آه يا ناشفة يا مقلحفة، يا معصعصة يا ممصوصة. آه يا عانس، يا بايره. بقى يعني ما تطرحيليش زتونتين أمز بهم؟! يخص عليك. اسفخس.

يستسلم للطريق في نصف دائرة.

ـ أهلا هو أنت الداير المسوِّى الهوايل؟ إنت المسكون؟ بخ، طب دق، وهو يخبط بكفه شق الفتحة التي في الحائط الدائر، يطل منها شبح الساقية السوداء: دوري دوري واروي لى. تروي لي إيه؟ آه صحيح تروي لي إيه؟ هو أنا عندي طين يا ساقية؟ واللا أقول لك، باين عليَّ بادَّن في مالطة.

يندار إلى الطريق، يرى الليل والسكون، يرفع سبابته إلى شفتيه: هُسّ. ينحدر مع الطريق حتى قاع الدحديرة، آه إجينا للجد، هو لازم نطلع اللي نزلناه؟ مفيش شكك أبدا؟!

يصعد ناظرا إلى فوق وهو منحن، يا حضرة السبرتو، يا منقوع الصرم، حتقدر تقوم بعريشي، وتطلع بي المطلع دهو؟ اشمعنى الميه بتطلع فوق فوق فوف للنخلة العون؟!

يختل توازنه، فيمسك بالأرض كالسحلية مع السقف، عند نهاية الصعود، يرفع يده اليمين، موش هي دي اليمين؟ أوعي تكوني الشمال وبتضحكي على دقني؟ ينحرف إلى اليمين: آه هو. يحسس على إفريز العربة المعشقة في حائط بيته مع شباكه. يحميك لي، يشد السقاطة، يدخل وبهدوء يغلق الباب.

في الفناء يتسحَّب حتى يصل إلى الحمار، يطبطب على كفله، يجرِّي يده على ظهره، يتوقف الحمار تماما عن قَرْش العَليق. يسرع برفع يده عنه، في أذنه يوشوشه: بلاش، اعمل معروف اقرش، حتفضحني، اقرش اقرش.. يلتفت إليه الحمار زاغرا. أنا ف عرضك اقرش لتصحى السَّلَعَوّ. يتعلق برقبته، ويدعك له منابت فكه، يتنهد في استكانة ولذة، يلوي رأسه ويحك جبهته، تعلو تنهيدة طويلة أسيانة، يا حبيبي يا حسنين. أنا أخوك حسن يا حسنين، إحنا مالناش غير بعض، مالناش غيرك يا حسنين، أنت كبير العيلة، أنت اللي في جيبك المصروف يا حسنين، معلهش كلك نظر برضه، يوم فول وبقية الجمعة قشر. وأنت سيد العارفين يا حسنين، يوم عسل وبقية لِيَّام بصل. لكن القشر برضه كان للفول ستر وغطا، ثم إن برضه ما أخبيش عليك، فول اليومين دول كله مسوس يا حسنين، وأخاف موت على صحتك من السوس، يا حبيبي يا غالي.

على رأسه يحسس. يرفع عنه يده. ببطء يطاطي حسنين رأسه إلى الطوالة. يستأنف القرش بهداوة.

على كفله يخبط، يفتح باب الحجرة، يتجه رأسا إلى الشباك، يمد يده إلى أعلى يصافح يد العربة الداخلة من بين حديد الشباك، يصافح اليد بحرارة: إحنا مالناش غير بعض يا حسنية.. حسن وحسنية وحسنين. يعيشوا لبعض، حسنية أركبها بالنهار. والسلعو تركبني بالليل ويَّا عفاريت السبرتو.

يلتفت حيث ترقد امرأته مع العيال، يصيح ديك، يندفع خارجا وهو ينفخ، مطيرا لطشة من رصيد السبرتو في رأسه.

إلى حائط قزم ممتد في مواجهة البيت في الجانب الآخر من الطريق يتجه رأسا، والراحتان مرفوعتان كأنه أمام ضريح.

على الحائط يمسح بيديه، ثم بقبضته يضربه، ثم باستدرار وتحنان وتوسل يسأله:

أنا مين يا حيطة زنُّو؟

قولي لي أنا مين؟
ردي عليَّ يا حيطة.
أنا مين؟
يضرب رأسه في الحائط، ينخرط في البكاء.
أنا مين يا حيطة زنو؟
يصيح ديك، الصباح أطول وأروق من الصياح الأول.. يمر أول خارج إلى الصلاة في مسجد النعمان، عبد السلام هلالي صاحب مكنة الطحين.
أنا مين يا حيطة زنو؟
ـ حسبنا الله ونعم الوكيل!
وينأى عبد السلام هلالي بنفسه وبملابسه عن النجَس، إلى أقصى الجانب الآخر من الطريق، حسبنا الله ونعم الوكيل.
ينفتح الباب العريض الذي يتوسط حيطة زنو، مرتفعا فوق القامات، أكتاف خيال مآتة عملاق.
بهدوء ينفتح، وبهدوء من بين النخلات العجفاوات السوامق، يخرج عم آدم الأعجف السامق، ويده ترتفع بمقود جمله الوديع جدا والمطيع «صابر» نفسه، الذي بطط صاحبه الأول أبا ماضي.
الرأسان متجاوران في حجم الدومة، ومن فوق تطل رءوس النخيل في حجم الدوم، يرتفع الصوت بلوعة في صلاة فجرية كاسرة.
أنا مين يا حيطة زنو؟
حسن عمران؟
ومين أنت يا حسن يا عمران؟!
أنت مين؟
أنا مين يا حيطة؟
يضرب رأسه في الحائط، وينخرط في بكاء مر.
انطقي يا حيطة.
قبل ما أموت يا حيطة.
حاموت ناقص عمر يا حيطة.
حاطق أموت يا حيطة.

**أنا مين يا حيطة زنو؟**

**ويخرج آدم بصحبة صابر من مناخهما، مسلمين أقدامهما إلى طريق البحيرة، حيث مسقط رأس الغاب الريحي، جنة محب وجحيمها.**

**أنا مين يا حيطة زنو؟**

# محبیـــات «۳»

# مشــروع نهيــق

في إيقاع صاجات العرقسوس، من حُداء حوافره على الأرض الصلدة، يركض الحمار الرشيق بصاحبه الأكرش.

والطريق يفاجئه بصولة، مجرد زبلة.

يختل الإيقاع، من أقدامه والشخاليل.

يزرجن ويحرن.

لا يثنيه ضرب أو سك[108]، ولا وكز[109] أو لكز[110].

رأسه من بازلت، وإن خلعوا عليه مئذنة.

فقط بالشهيق في شره المغناطيس.

يجذب الزبلة، إلى عنان السماء، بين شفته وخطمه.

جابدا النفس تلو النفس.

يختل التوازن، ينكب الأكرش مترجرجا.

في صوت الموج المكتوم، داخل تجاويف الصخور.

هي تعميرة المزاج، وحلم اليقظة.

وبالزبلة ينزل مفرغا حشده في مشروع نهيق.

---

(108) تعني في لغة محب شدة الضرب وموالاة الإيذاء.

(109) الضرب بجمع اليد على الذقن.
(110) الضرب بجمع اليد في الصدر.

# الجاموسة والفراشة

كانت الجاموسة واقفة في ظل أمها الجميزة، كالتل تجتر، راسخة كتمثال من بازلت.

الجاموسة التي يحلبونها، ويجمعون روثها وَقِيدا وملاطا وسمادا، ويتجرون في ولدها ولحمها، ويقسمونها بينهم حية أسهما ويثرون.

الجاموسة الأم، الأصل والفصل، تحرث الأرض، وتسقي الزرع، وتدرس الحب، وتملأ الضرع. صباح مساء يمتلئ الضرع.

كانت تقف بلا حركة، اللهم إلا ضفيرتها، ذيلها الذي يتحرك حركة نصف دائرية من أجل الذباب، وحركة حلزونية مكتومة من أجل القراد، المتوغل إلى منابت الحركة من مفاصل الأفخاذ، الطفيليات الصفيقة الضارية التي تمتص الدماء، والعملاقة لا حول لها إلا أن تنفخ، ملء مراوحها وبربخي[(111)] أنفها.

وعلى طرف قرن الجاموسة فوق أعلى نقطة، وكالطائرة الشراعية حطت فراشة، وكانت أول الاستفتاح.

من موقعها الفريد، وحركتها التي فرضتها عليها الجاموسة، كما تفرض الكرة الأرضية علينا حركتها، وقفت في رشاقة تراقب.

أهي شاعرة؟ أم ذات مزاج؟!

وما لبث أن حط على ظهر الأم، الحكيم أبو قردان، ثبتت حركته كأنه صنم، وتوترت قائمتا الجاموسة الخلفيتان، وانغرزتا في الأرض.

قالت تستنجد به وتستحث، وإن أخفت غرضها: يا حكيم، أو تنتظر عزومة؟

رد الحكيم: إذن لم جئت؟

وترفع ذيلها، فينحدر متشبثا به، وينقر، وكل نقرة بعُصبة من الذباب الأزرق الجارح، ومن تحته مستعمرة القُراد ذي الكلاليب.

وتحتها يحط هدهد، وبين مخلفاتها يسدد النظرة وينقر، والنقرة بدودة تتقوس في منقاره المقوس.

قالت الجاموسة للهدهد ـ وأبو قردان ينط إلى الفخذ الأخرى ـ معبرة عن سعادتها بالخلاص، قالت كمن يتكلم من تحت فوطة الحلاق: من قدك يا عم؟ مثل الفرخة رزقك تحت رجليك.

والتهم الحصيف الدودة قبل أن يفتح فمه برد: كلما ضاقت بنا أو علينا يا أم جئناك.

وعاد ينظر وينقر.

وانحسرت الجاموسة إلى عقل بالها تقول: صحيح الأحياء بعضهم لبعض، ولكن السؤال العويص، لِمَ لم تقيدني هذه المخلوقات الرقيقة بالسلَب من أجل ضمان غذائها المفضل؟ نفسي ومنى عيني أن أغمِّض وأفتِّح، فأرى هذا الجلادي النائم في ركن القش، مقيدا بالسلبة التي يقيدني بها.

قال لها أبو قردان مودعا: فُتِّك بعافية.

وأطالت النظر في وجد لم يخلُ من مس من حرمان، إلى جناحيه يحملانه بيسر في الفضاء الواسع الحر، ثم أرجعت البصر إلى عقدة السلبة، بمعصم يدها، وإلى ساقية عنطوظة أمامها، وغيطان الرز المترامية الغارقة في الماء، كل هذه البحيرات من ناف[112] أعناقنا. وكظمت.

ولما قضت الفراشة من قرن الجاموسة وطرا، سألتها تعبيرا عن مِنَّة وفرط أدب: أيزعجك الآن يا أماه أن أرحل؟

رفعت الجاموسة نن عينها إلى أعلى علِّيين، وباهتمام وصدق، قالت: إيه؟ وهل كنت موجودة حتى ترحلي؟! أنا كمان باقول إيه اللي كان وازن دماغي؟!

---

(111) البربخ هو البالوعة من الفخار.
(112) هو النير، أي الخشبة المعترضة فوق أعناق الماشية، لإدارة الساقية أو جر المحراث أو النورج.

# هذه هي المسألة

النخلة سامقة رشيقة، فوق بلحها المخدد يحط غراب، بين قدميه ينظر، في رشاقة يرفع منقاره إلى قرص الشمس الأحمر.

الغراب أنيق، منطلون[(113)] وقميص من الرمادي، والسترة من الأسود. ينحني إلى بلحة بعينها، من قمة مخروطها المقلوب ينقر، تنخلع وتسقط، يرفع منقاره وفي طرفه جزلة منها، في دربة ورشاقة يرسلها في الفضاء، وبثقة يلقَفها، يزدردها ثم ينعب.

إلى منابت سعفة يحجل، تغزغزه سلَّاءة: يزعق: «كواك كاك». إلى سعفة مائلة يحجل.

والنخلة تقول له: ذنبك على جنبك، ألم تر كل هذه الحراب المشرعة حول جُمَّاري. هل عميت؟!

يقول الغراب: اللعنة، كان على السلاءة، لو كانت على شيء من الحياء، أن تتفاداني.

والنخلة تقصع ضحكة مجلجلة، وهي تتمايل وسعفها يصطك، ثم تقول: عندك حق، السلاءة العدوانية اقترفت في حقك إثما.

يقول الغراب مزهوا: موش كده والنبي؟!

تقول النخلة: وعلى السلاءة من الفور أن تحتضنك وتبوس رأسك معتذرة.

صاح الغراب في فزع: لا لا، أنا في عرضك.

تقول النخلة: عرضي! الأصول عندنا يا سيد مرعية: أليس الثابت هو الذي يتفادى المتحرك؟

صاح الغراب: بل المتحرك هو القادر وحده على التفادي، هو الذي أتى برجليه. أنا المخطئ يا عمتي النخلة وستون مخطئا.

وعلى التصايح تنادي الـمَرَشّ[114]. والأسرع كان قردا هرب يوما من صاحبه داود، وعند آخر قحف توقف.

قال الغراب وقد انفثأت عنه نفخته الكذابة: رأيت المتحرك مثلي يرى الكل دون الجزء، ولكنه أقصر عمرا، أما الثوابت الرواسخ، فترى الحركة في الزمن.

تقول النخلة: ولكن الناس أسيادنا يا أستاذ غراب، أراهم ثابتين كالشجر، مع إيتائهم كل أسباب الحركة، يتفرجون منذ آلاف السنين على من يلعِّبهم على الشناكل، وبأصحاب الشناكل أنفسهم يتناطحون في صخب وجلبة.

سأل القرد: ولكن يا عمة، أين هؤلاء الأسياد الثابتين كالشجر؟

تقول النخلة: إنهم منحسرون منذ القدم إلى داخلهم مختبئون، وبالجمع الأحمر ختموا على أبواب نفوسهم.

ومن تحت سألت جاموسة الجلادي وأذنها فوق: إذن ما العمل معهم؟

تقول العمة: شوفي يا ست. الواحد في محب اثنان، واحد حقيقي قابع في داخله وقدس أقداسه، مذعور لا يبرح، وآخر بقناع ومهاود. يقول: «أي إهئ» وهو يعني «لا».. هم كالقراميط مزفلطون لا يُمسَكون.

ومن تحت النخلة يغني القط داود، وهو يلاعب فأرا صاده: تعاندني وياك، تكايدني وياك، تلابطني وياك، تسهيني وتهجرني، أنا لست معاك.

ومن منابت ذيله، يرسل الغراب شيئا.

والحمار يتطلع إلى رأس النخلة حالما: طالب من الله، ولا يكثُر على الله، قبل أن أموت يا عمة، أن أركب شيخ الخفر شخصيا حماريا وأهزُّ رجليَّ، ذلك البدين الرَّسَخة، الذي ينشلني من صاحبي كلما قصد البندر[115]. أقضي معه سحابة اليوم متضورا[116]. اللهم ـ بحق جاه النبي ـ جوعه قبل أن تُيَتِّم عياله. وحينما أتعب من الركوب، أشغِّله في التتريب[117]. هل يكثر على الله؟ أما من حل يا عمة، يخرجنا من هذه المدْلَهِمَّة[118]؟

تقول النخلة: طالما ظلوا في حصنهم الحصين، فلا أمل في تغيير، أو في الحصول على حق منهم.

ويسألون جميعا: إذن كيف نخرجهم؟

**تقول النخلة: هذه هي المسألة.**

---

(113) بلغة محب.
(114) الساحة يتجمع فيها النخل، ويرشها ببلحه، والأطفال مبكرين يشتّون فيها البلح الساقط، أي يجمعونه من الشتات.
(115) المركز، وهو المدينة يتبعها قرى.
(116) متلويا صائحا من وجع الجوع والضرب معا.
(117) أي نقل السماد البلدي ونزح المجارير، إلى الأرض الزراعية بالمزبلة.
(118) الصحراء لا علامة فيها ولا أثر.

# الحــدق يفهــم

حطت اليمامة على الصَّفصافة، وهي تلوِّح بالتمر حنة في تحية الصباح.

وحطت الحمامة على الزيتونة المقابلة، كأنما كانوا على موعد. ساد الصمت، إلا من ريح تحمل أصداء متكسرة لصرخات بشرية، من سجن بظهر المدينة إلى جوار المشرحة، يطل على محب.

قطعت اليمامة الصمت سارحة مع الصفصافة: عجيب الآدمي، بهذا التعذيب والصراخ يركب ويهز رجليه.

قالت الشجرة الراسية: أقلِّي فبين يديك بكاء طويل.

أكملت اليمامة: ابن آدم، أوتي اليد واللسان، فابتدع السجن، أبشع ما قام على الأرض من بناء. يزج فيه باسم مقدساته كل من يخالفه، حــتى عمدة محب الأكتع يحول إليه كل مــن لم يدخل له من زور.

قالت الصفصافة بهدوئها: لو أننا نحن الطير والوحش والحشر والشجر، اهتدينا كما اهتدوا إلى هذا السجن، لدونّا لنا بدماء التعذيب تاريخا، ولنبتت لنا في ظلام الزنازين ذاكرة تخزن، وكانت لنا حضارة.

ثم عقبت بين حفيف أوراقها: قصر ذيل منا نحن الزعر، ألَّا يكون لنا سجن.

قالت اليمامة: يا شيخة، الله الغني عن مثل هذه الحضارة الدموية، والقتل أهون مما يجري داخل هذه الجحور، فليغر وحش الوحوش سبحانه من الحياة.

قالت الصفصافة وهي تهدهد يمامتها: لا عليك، عندهم أثر بَدَعَهُ الواقعون من قعر القفة، يبدون فيه رأيهم في كل ما يدور من عُمَدهم وأمرائهم، وهم «يحاسبون القاضي»[(119)].. والحدق يفهم.

سألت اليمامة: إليَّ به، يا منقوعة الحكمة.

**روت الصفصافة: أثر فريد وإن بدأ يندثر، يقول:**

**كنس الكناس**

**رش الرشاش**

**ضرب النفير**

**نزل الأمير**[(120)]

**صاحت اليمامة وهي تخفق بجناحيها: الله يجازي شيطانهم. أهذا رأيهم في أميرهم؟! عفارم!**

**همست الصفصافة: هس. وشوشي فآذان الحمامة والزيتونة علينا مقرونة.**

**قالت اليمامة: يا شيخة حرام عليك، إنهما رمز السلام.**

**صرخت الصفصافة بتلقائية: فشر! إنه سلامهم هم يا عبيطة، السلام الرسمي. أما اليمامة والصفصافة، فهو السلام الشعبي.**

**عقبت اليمامة وهي ترفرف: دقي يا مزيكة.**

---

(119) تعبير شعبي معروف لمن يدخل بيت الراحة أو الأدب كما تقول محب.
(120) مفاتيح رموز هذا الأثر تتضح إذا تأمل المرء ما يحدث له في بيت الراحة.

# ثـورة الغــربان

من مرش النخيل، وفي حذر شديد، ترتفع ماسورة بندقية عوض قاتيلو، وينطلق عيار، ينعب في إثره غراب، تشق ولولته سماء النخيل، ثم ينهبد في الأرض كتلة مكتومة.

وبالرغم من رائحة البارود التي يعرفها الغراب جيدا، ويحذرها جدا، إلا أن غرابا يردد النعيب، يجيبه من بعيد غراب. ومن كل الأرجاء ثان وثالث وعاشر. كواك كواك كواك. وانفرشت السماء بالأجنحة السوداء، وبقع الصدور الرمادية.

فاض بها الكيل.

والغربان بالمئات تتوافد، والنعيب كالعديد فوق رءوس النخيل، والسعف تحت ثِقلها يتأرجح، والأجنحة السوداء العفية تضرب الهواء، وترسل النعيب، وتسقط البزاق.

غربان الشط على بكرة أبيها في مؤتمر جنائزي، فوق النخيل ذاتها، دون اعتبار لصياد أو بندقية أو بارود.

وكلما اقترب الغروب، ارتفعت حدة النعيب، وحينما تغطِس الشمس، تنشز الأصوات وتختلط، وتسقط إلى الأرض مدببة حادة، ومتقاطعة متضاربة، كتصويت النساء ساعة حمل الجثة.

ومع الشعاعة الأولى لشمس اليوم الجديد. بدأ الهجوم.

الأسراب تنقض على تربيعة الذرة، التي تجاور مسرح الجريمة، التربيعة التي نصبوا فيها على الذرة، الغراب الضحية خيال مآته، يخيفون به الغربان.

والغربان لم تعد تخاف.

سرب وراء سرب، في تنظيم وإصرار، كواك كواك، تلخلخ وتخلع في غارة جوية مباغتة. دقائق والكيزان التي لا تزال حباتها لِبانا[(121)]، مملوخة وملقاة، والأعواد عند أقدامها مائلة.

إلى حافة التربيعة اندفعت امرأة، والرجل المفزّع بنومه على حافة مرش النخيل، والقرية في لمحة، النساء خلف المرأة، والرجال خلف الرجل، عيون تجحظ وتغور، تجحظ وتغور.

وبعد أن لم يعد عود يحتضن كوزا، ترتفع الغربان كلها في طابور سريع لا تدرك العين مداه، لتنقض إلى الغراب خيال المآتة.

غراب إثر غراب، إلى الرباط الذي يثبّته في القصبة القائمة، تُعمل مناقيرها، تخلصه.

وقبل أن يسقط الشهيد إلى الأرض، يلتقطه كبيرهم، يرتفع به في مناورة إلى أمام كرأس السهم، وخلفه الغربان تؤلف جسم السهم، وهي تطلق النعيب الجنائزي الجليل.

حملوه بعد أن انتقموا له أمامه، إلى حيث يُجرون له طقوس الدفن. وعند آخر غراب في التشكيل، التقطت المرأة طرحتها السوداء، تشدها من طرفيها، تشد بها رأسها من قفاها، وتشنشن، وكل حركة تنتهي إلى اتجاه الغربان، وهي تجأر: يا خراب بيتك يا جلادي[(122)].

والغربان في جلال ترد: كواك كواك كواك.

ـ يا خراب بيتك يا جلادي.

ـ كواك كواك كواك.

---

(121) لبنا إلا أن اللبن للضرع وحده، واللبان للثدي وغيره.
(122) زوجها صاحب تربيعة الذرة.

# حصان الملاحة

(١)

في الأصيل والشمس خلف محب تماما، مستغرقة في تمشيط شعرها، وإرساله من خلفها على كل امتداد الأفق الغربي، تفلت من قبضتها جديلة، تنطلق وراء كِسَف الغيوم المجنونة، تطاردها متعدية حدود الغرب. وأقواس الطيف قبل أن تلمس الأرض، تطلق صواريخ الألوان.

(٢)

فجأة ترتج محب كلها، هرب «الرعد». حصان السوالمة أفلت. جاءه «الدور». ركبته «النوبة».

أكيد عائد من الملاحة.

فلْتُقفل فورا كل الأبواب، وليلزم كلٌّ بيته، ولتتمم كل أم على أبنائها، ومن بعد عن بيته، فليدخل من أقرب باب، أو يصعد نخلة.

الحصان يشرَس بعد العودة من الملاحة، لا يعود إلا مصاصة. يظل يرفس عريش[(123)] العربة بجنون وسُعار، حتى يندلع من حافره الشرار، فيشب ويصهل، ومحب تردد الأصداء، ثم يندفع كالإعصار.

ومحب قلبها مع وابور الطحين، يدق، كلها من فوق السطوح، وفي النوافذ لمن بيته من دورين، أو متعلقين من فوق بأعجاز النخيل.

(٣)

الملح رَصاص ثقيل مجهد، لا يخرج إليه في الفجر الأول إلا الحصان القوي العفي المعلوف.

وبكمية الفول في العلف، يدرك الحصان سلفا، أيخرج أم هو من القاعدين.

(٤)

العجيب أن حصان السوالمة كلما أتى على طريق، وانتهى منه إلى الغيطان، وكل الطرق تفتح فجأة على الغيطان، وآفاق الخضرة، وسماوات الزرقة، وطقطقة مفاصل الحرية..

.. نظرة خاطفة ليس إلا. ومضة. يختلج يشب يصهَل، لينقلب على عقبيه أكثر عتوا، كالهارب من اللهب إلى قلب محب من جديد، دون أن يخطئ مرة إلى رحاب الآفاق.

(٥)

علق أبو قردان الحكيم يوما، وساقاه غارقتان في مَطلق مياه الرى: أكل هذا الجبروت دون الخلاص؟! آه لو أدرك أو حتى وعى!

(٦)

وإلى عريشه يعود، عبدا مسالما مضنى شقيا مُعَنًّى، يتمسح به كالضريح.

وإلى نير مخلاته المحوَّجة يعود. يسلم لها بوزه، وطول الليل يجرش.. والذليل كالمسطول يأكل التل.

(٧)

وينفخ فيطير القشر، ومن فول العلف تزحف طوابير السوس. تنخر، والجسد العاتي ينقب الجبل لبناء معبد، أو إقامة هرم شاهد قبر، أو حفر قناة لعبور السياط.

وينفخ فيطير التين والرجيع والردة، ويَبين غلام يفرقع بالسوط، فتتحرك دواليب السخرة.

وينفخ فيظهر على الفودين أختام العبودية، التي تدمنه ويدمنها، مع الاحتفاظ بحق الفلفصة منها في حدود.

وطول الليل يجرش الفول، احتشادا لعريش ملح جديد.

---

(123) مقــدمة العــربة الكــارو، حيث يجلس العربجي. وإلى جواره مخلاة الحصان أو الحمار.

# إمـــــاء

وترد أول نحلة. إنها «شغالة» بالطبع، وفي إثرها زميلات. وهي تئز كالطائرة، وتحوم حول الزهر. ثم تحط.

وترد نحلة غليظة ذكر.

والشغالة تنحني داخل الزهرة، كأنها الشادوف وهو يغرف الماء. إنها في سجود عميق.

تُرى ما تقول الشغالة لقلب الزهرة، وهي تبادلها الوظائف الحيوية التي نسميها المنافع؟ الرحيق مقابل حبوب اللقاح؟

زعق الذكر للشغالة التي تُشَدِّف[(124)]: يا هذه، أليس في حياتك إلا العمل؟!

ردت الشغالة وهي ترفع قامتها، كمن يقول بعد الركوع «سمع الله لمن حمده»: إيه؟ ما تقول؟

قال: يا شيخة، القُطي نفسك، وانظري حولك، ففي الحياة شيء اسمه العدالة.

قالت وهي تغـــيب في حلق الزهـــرة: أهـي شيء يؤكـل؟ ما الحياة يا مجنون إلا عمل.

زعق الذكر: اسمعيني فالأمر هام جدا، لأنه عن مصير العمل، عن العامل الذي ليس آلة، عن الاستغلال.

أطلت بحدة لتقول: أنت معطل، لا منك ولا كفاية شرك.

قال وهو يتخذ وضع الهبوط: أتدركين أين يذهب عسل الخلية؟

قالت: حسبي أن أعمل.

قال بحدة: حتى لو كان عملك ساقية جحا؟ هكذا أنتن أيتها العاملات، ألا تفكرن في هذا التنظيم الإداري المحكم للخلية، الذي يدور على الفاضي؟

كانت الشغالة ترتب حمولتها للرحيل، وتطمئن إلى امتلاء السلّتين بالزوج الخلفي من أرجلها بحبوب اللقاح، والشغالات يفدن، عندما قال: إنه وحده سالب عسلكن، الإنسان هو الناهب المستغل.

سألت نحلة في حسم: أقصر يا هذا، ما تريد منا؟

قال: أن تُضربن عن إنتاج العسل، وحينما يرى الإنسان ألا عائد، يترككن لحياتكن، مرة واحدة تحركن إلى الأبد.

زعقن في نفس واحد: نُضرب؟ هل التاث عليك عقلك؟ وما نفعل؟ إذن تتوقف الشمس والليل والنهار عن العمل.

قال الذكر نافد الصبر: تعشن وتمتن إماء، ألم تسمعن عن شيء اسمه عدالة؟

ردت نحلة: من لا يعمل، يتكلم ويتفلسف. هذه هي المسألة.

قالت أخرى: حضرتك تبغي تغيير نظام الكون! الموت لك.

قال: لي أنا؟! أم للإنسان الذي يسلبكن عملكن؟!

قالت شغالة: أنت ثرثار بشكل!

قال: آلاف مؤلفة من الإماء بالخلية، حينما أحاول أن أهديهن إلى تغيير نظام حياتهن، فالموت لي.

قالت واحدة بغيظ: أتغيِّر يا مفعوص من الناموس؟!

قالت الأخرى ساخرة: أتغير يا لوح من اللوح المحفوظ؟!

وزعقن جميعا: مارق.

قال الذكر وهو يرقص في دائرة حادة، خارجا عن طوره: «هأو أو». ثم هدأ. إذن لا فائدة، فلأترككن للمستغل الأعظم، أنتن كالقطاط يحببن خناقهن.

ولم يكد يكمل، فقد وصل سرب من الحرس الملكي للخلية.

في لمحة هوى الذكر جثة.

واندفعت الشغالات داخل الزهر، وهن يسدلن عليهن غَمائمهن[(125)].

(124) أي تطلُع وتنزل كالشادوف.
(125) كغمامة الثور المعلق بالساقية.

# جدول المحتويات


**محبيــات «١»**

في ســـيرة محـــب

ياســـين الفـــران

زَرّ

وتـريات الـغـــاب

مـا بســـــش

مســـــك الختـــــام

**محبيــات «٢»**

المفتـاح الضائـع (تمهيد)

(نـــدى)

(طابور المدرعات)

(فقاقيع الشبارة)

(الطائرة الشراعية)

(قشـــة البعـــير)

أبو فصـــادة

زفـاف الملائكـــة

أبـو هبـــط

ظـُهرة الهبلة ومدام عزيزة الفرنساوية

الأحمر والأخضر

فشَّـــار محـــب

من كفنه خرج

القرطاس الفارغ

بير الصمت

حَـكـَمة يطارد عزرائيل

حديث الدولاب

شـــــــجـاع

أنــا مـــين؟

**محبيــات «٣»**

مشــروع نهيــق

الجاموسة والفراشة

هذه هي المسألة

الحــدق يفهــم

ثـورة الغــربان

حصان الملاحة

إمـــــاء